هوى الآلهة

ومشاهد خالدة من أروع قصص الحب

تعريب

فوزي الدامي

الكتاب: هوى الآلهة: ومشاهد خالدة من أروع قصص الحب

الكاتب: فوزي الدامي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الدامي ، فوزي

هوى الآلهة

ومشاهد خالدة من أروع قصص الحب / فوزي الدامي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٩٨٠ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٤٢٥ / ٢٠١٩

هوى الآلهة

ومشاهد خالدة من أروع قصص الحب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

موضوع هذا الكتاب هو موضوع الحياة نفسها منذ بدء الخليقة، هو الموضوع الأزلي الذي لن تستطيع يد النسيان أن تمحوه أو أن تغير منه شيئاً لأنه صلب الحياة وقوامها. هو موضوع الحب، الحب في صوره المختلفة المتباينة: حب الآلهة والملوك، وحب العامة والزنوج، حب الغواني الملتهب الفاضح، وحب العذارى الروحاني المقدس، هو الحب في أجمل صوره وأحلاها وهو الحب في أبشع صوره وأفظعها، هو حب الإخلاص والتضحية .. هو حب (جين إير)، كما أنه حب الانتقام والأخذ بالثأر .. هو حب (ليدي تشاترلي) المشتعل الجامح الذي تغلب عليه شهوة الجسد الفائر الثائر .. وهو حب (كاتيا) العذري الذي تحترمه وتقدسه.

في هذا الكتاب نضع عصارة أذهان أولئك الكتاب العالميين الذين ضحوا بحياتهم لكي يعلموننا الحياة كيف تكون، وأفنوا أعمارهم في سبيل إسعاد هذا العالم التعس وإنقاذ هذه الإنسانية المعذبة،

صور غرامية من الأدب اليونانى

هوى الآلهة

لوسيوس أبوليوس

تقديم للكاتب:

هذا رجل خبر الحياة ولمس دقائقها، عاش في عصر يضطرب بالعوامل الاجتماعية المتفاعلة المتحفزة – في القرن الثاني الميلادي وفي بقعة تصطحب بالمتناقضات من بقايا الأمس المتآكل وفتوة الغد المتفتح – في إفريقيا، وهو إذ كان رحالة يجوب الآفاق ومحامياً كبيراً، اشتغل كذلك بفلسفة أفلاطون وقام بواجبات الكهنة الروحانية ولو أن الكاهن إذ ذاك كان قد فقد الكثير من مهابة قدسيته الغابرة، ويصور كتابه الأول "ميتامورفوسوس" مجتمعاً يحفل بالأسرار، ويتشعب في مسالك الغموض الإلهي ويتفجر بمعجزات الخفاء وأعاجيبه.

وقد تزوج الكاتب بأرملة عريضة الثراء، فحقد أقاربها – كما يبدو – واتهموه بالاشتغال بالسحر وقدموه للمحاكمة.

وقد كتب كثيراً في الفلسفة ولكنه منى بالفشل في هذا الميدان، إذ كان يكتب باللاتينية وهي ليست لغته – فيختلق كلمات غريبة – توصلا إلى غرابة الوقع وإمعاناً في تصوير جو الرهبة المغلفة بالأسرار.

ملخص القصة:

وهذه أسطورة محببة إلى قلوب الغربيين، تداولتها العصور والأجيال وأضفى عليها القدم روع المعنى الإنساني متمثلاً في "الرمز" مجسداً في آلهة الماضي، ونحن نصادفها في الأدب اللاتيني في قصة "الحمار الذهبي" وترجع إلى القرن الثاني للميلاد، ونستطيع أن نعود بأصولها إلى الأساطير الإغريقية العريقة في القدم، كما نصادفها الآن في كتب الأطفال التي يقرأها الغربيون تحت عنوان "الجميلة والوحش".

وللأسطورة – على مر الزمن – تاريخ طويل، وهي إذ تتناقلها الأجيال تظهر في غضون القصة الأصيلة قصص أخرى جديدة – ولكنها كاملة متميزة بذاتها، وتتخلق فيها شخوص جدد، تحكي كل شخصية قصتها وتعرف بنفسها، أو تروي حكاية صغيرة متداولة.

ونحن نلمس هذه الظاهرة جلية واضحة في قصة "الحمار الذهبي" وهي قصة تدور في ذلك العالم الغامض المظلل بالرهبة عالم السحر، فنرى بطل القصة يستحيل إلى حمار يذهب لينفض عن نفسه سيطرة السحر فيقدم على المشاق ويخوض غمرة الشدائد المتتالية، وفي أثناء مغامراته تلك، تختطفه عصبة من اللصوص، وتطرق أذنيه في محبسه قصة غرام كيوبيد وبسيشة، ترويها عجوز لفتاة أسرها اللصوص.

وبسيشة بنت ملك من ملوك الأساطير، أرسلها أبوها – مرغماً – لكي تتزوج كائناً مجهولاً غريباً يقطن قصراً بعيداً فوق سفح الجبل. تتقدم

بسيشة مرتعشة وجلة، نحو القصر الجاثم فوق سفح الجبل، وإذا بها في مكان يتضوع بالجمال المترف الناعم، ويفيض به سحر البذخ وروعة الأناقة وإذا بخوفها يتبدد رويداً وشيء من الاطمئنان يساورها فتتقدم بخطوات يحدوها أمل مبهم ورغبة في استطلاع كنه المجهول.

المشهد الغرامي:

تقدمت بسيشة تلج الباب المفتوح كأنما يستقبلها في رحابه الكرم، وقد افتتنت بسحر هذا المكان، وراحت تتأمل مظاهر البذخ الرائع الثمين وليس هناك من يقوم حارساً وليس من أثر لمزلاج أو مفتاح أو سلاح، وهي إذ تدور بعينها تستقصي مفاتن القصر وأسراره، يتناهى إلى سمعها صوت أقرب إلى أصوات البشر بوجه القول لها:

– أيتها الغادة الفاتنة كل ما ترينه حولك إنما هو ملك يديك، كله لك وفي قبضة يمينك، هلمي إلى هجعة قصيرة تغفين فيها إلى الراحة، ثم تستيقظين إلى الحمام المعد لك فنحن – من تسمعين صوتنا ولا ترين أشباحنا – نحن خدمك وطوع إشارتك، قصارى أمانينا أن نسهر على راحتك ومائدة ملكية سوف تعد لك بعد قليل.

وأدركها شعور بأن عناية إلهية قد شملتها، وبعد أن تيقظت وخرجت من الحمام – منتعشة كالوردة عند فجر مشرق– جلست إلى المائدة الملكية المهيئة لها، ولم تر مخلوقاً وإن ظل يتناهى إلى سمعها أصوات تلك الكائنات الخفية تسعى لخدمتها.

وإذ فرغت من طعامها أصاخت السمع، فإذا بنغمات شجية تتصاعد كحلقات من بخور مقدس وإذا بأوتار القيثار الملقى بجانبها تهتز بألحان إلهية رائعة، وإذا بغناء فرقة كاملة من الموسيقيين يرتفع قوياً يملأ النفس شجي ويهزها في عذوبة وروعة، ولكنها لم تر أحداً وإن كانت النغمات القدسية ما زالت تنبعث حولها من المغنين المختفين.

ودعتها ساعة النوم إلى فراشها، وإذ تقدم بها الليل سمعت صوتاً حانياً يقترب منها فارتعدت وقد انتبهنا المخاوف وأشفقت على نفسها أن يمسها السوء في هذا السكون العميق الملغز بالخفاء والأسرار، وكان خوفها رائعاً حقيقيا تغلغل حتى أعماق نفسها ونبضت به كل قطرة من دمائها، خوف شامل رهيب يشلها ويحيلها كتلة من الترقب المتوجس المتحجر.

وجاءها هذا الصوت الحاني، هذا الزوج المجهول واتخذها زوجته في صمت الليل وما أن تراءت تباشير الفجر حتى ولى عنها مسرعاً، ولم تر منه شيئاً ولم تعرف منه إلا حنوه في ظلمة الليل ونبراته العذبة ترن في الكون.

ثم تمر الأيام والليالي، يأتيها هذا الزوج في الليل ويأوي عنها في الفجر وتخدمها الأشباح غير المرئية طول النهار، وبدأت بسيشة تطمئن قليلاً إلى هذا الوضع، وتجد فيه سروراً خاصاً فهذه هي حكمة الله، وأصبح صوت زوجها الحاني في ظلام الليل عزاؤها في وحدتها وما يحيط بها من مخاوف.

وفي إحدى الليالي خاطبها الزوج الخفي قائلاً: أيا بسيشة يا أجمل من عرفت من النساء أرى القدر يعبس لنا ويتهدد حياتنا بالخطر، لقد جاءت أخواتك إلى سفح الجبل يبحثن عن أثر لك بعد أن ذاع خبر وفاتك بين الجميع، أوصيك يا حبيبتي ألا تستجيبي لهتافهن، أوصيك أن تبتعدي عنهن ما أمكنك، وإلا حل بنا الدمار وعرفت مذاق البؤس والشقاء.

ووعدته أن تطيع وصايته، وولى الليل واختفى الزوج الغريب وأخذت تنتحب طيلة اليوم، لم تعد ترى في سجنها المذهب الباذخ شيئاً يبعث البهجة إلى قلبها المستوحش، وقد وجدت نفسها عاجزة عن أن تخفف أحزان أخواتها أو تجفف دموعهن المنهمرة، عاجزة حتى عن أن تتصل بهن وأن تشبع وحشتها إلى لقائهن.

ومضى اليوم وجاءها زوجها فأخذ مكانه إلى جانبها معاتباً بعد أن قبلها:

– أتفين بوعدك على هذا النحو يا حبيبتي؟ ماذا أرى؟ أتبكين وأنت بين ذراعي؟ هلا كففت عن تعذيب نفسك؟ إنني لا أملك إلا أن أتيح لك الفرصة كي تشبعي ما يدور في نفسك من رغبات، افعلي الآن ما يحلو لك، ولكن اذكري تحذيري، إنني أرى في السبيل الذي تسلكينه الآن خطراً محققاً، وسوف يدركك الندم.

وأكدت له بسيشة أنها بعيدة عن كل أذى، وأن لا رغبة لها إلا أن ترى أخواتها وأن تهديهن شيئاً مما يذخر به القصر من حلي، وهنا لفت

نظرها إلى ما قد يثيره فيها أخواتها من فضول وأوصاها أن تقف بمنأى عن كل المحاولات التي ترمي إلى استطلاع حقيقة شخصيته، أنه مقضي عليه أن يظل غامضاً أمامها، ومقضي عليها ألا تعرف حقيقته والويل لها أو أنها تحدث القدر، فالعقاب سينزل صارماً ورهيباً وسيقضى عليه بأن يهجرها إلى الأبد، فأجابته أنها ترى الموت خيراً من أن تحرم ضمته الحلوة وعناقه الحار، إنها تعبده حقيقة وتحبه أكثر من حبها لنفسها، حباً عميقاً شاملاً لم يحس به بشر من قبل، وأن كل ما ترجوه أن يأمر خادمه "زفيروس" أن يهدي أخواتها إلى القصر وتوسلت إليه وبكت واستحلفته بحبها فوعدها بأن يلبي مطلبها.

وإذ بدأت تنبلج تباشير الصبح قبلها قبلة الوداع، حارة مضطرمة، واختفى بعيداً ووفدت الأخوات أخيراً، فقصت عليهن قصة حبها وقد أشرق وجهها بالسعادة، فتسلل الحقد إلى قلوبهن وأضمرن لها الشر. وأتينها ثائرات يظهرن الغيرة على مصلحتها:

– إنك يا أخت تعيشين عيشة غامضة، محاطة بالمخاوف والأهوال، أو وحدة قاسية صارمة تقضين فيها يومك وغموض لا تدركين له من سر أو سبب طوال ليلك؟ إننا على يقين من أنه ثعبان ضار سام ذلك الذي يأتيك كل ليلة يضاجعك، ألا تذكرين كيف كتب عليك في صفحة القدر أن تعاشري وحشاً ضارياً؟ هناك من شاهدوه بأعينهم راجعاً إليك في أول الليل، إنه ينتظر اليوم الذي تحملين فيه طفلاً، سيكون هذا اليوم يوم نهايتك ونهاية حبه المزعوم، إنه ينتظر هذا اليوم ليجعل منك ومن طفلك

المسكين طعاماً شهياً، لقد أبرأنا ذمتنا وقمنا بواجبنا المقدس نحو أخواتك الوفيات، فإن كنت لا تزالين مفتونة بموسيقى هذه الأشباح الخفية وإن كنت قد وقعت في شباك حبه المفتعل فافرحي كما يحلو لك، فلن تطول مدة فرحك، أما نحن فقد قمنا بكل ما في وسعنا لإنقاذك.

تلقت بسيشة هذا الوعيد المخيف في انفعال بالغ، تغلغلت هذه الكلمات في نفسها الوادعة تحمل في طياها النذير الرهيب فأنستها وعدها لزوجها وأنستها وصاياه ورجاءه والتفتت مذعورة إلى أخواها تلتمس منهن العون، وهي ترتجف في هلع:

– إنني لم أر وجهه حتى الآن ولا أعرف شيئاً من حقيقة أمره، لعل ما يقوله الناس حق واقع! إنه يتهددني دائماً بالشر المستطير لو دار بخلدي أن أراه في الضوء، فهل في مقدوركن إنقاذي من مأزقي؟ هلا وعدتني بالوقوف في جانبي؟ أنا الشقية البائسة؟

فأجابها الأخوات:

– لقد أجلنا الفكر في طريقة خلاصك وسوف تعرفين أخيراً حقيقة ذلك الثعبان الضاري، إليك سكيناً حادة خبئيها حيث تنامين من الفراش، وضعيها خلف الستائر عند المصباح، وبكل ما أوتيت من قوة اطعنيه في رأسه طعنة نجلاء

ثم انصرفت الأخوات عنها مسرعات، وتركنها لنفسها وحيدة ينهبها الخوف والحيرة، فريسة لحزن مثقل محض، وأخذت تتخبط في حزنها كأمواج البحر، كانت قد عقدت عزمها في قوة، إلا أن الخوف كان يهاجمها إشفاقاً من مصيرها المجهول، وهي إذ تسرع تهيئ العدة لخطتها تقف فجأة وتتراجع في تردد، إنها تكره ذلك الوحش الضاري المخيف، ولكنها تحب زوجها الحاني عليها في ظلام الليل، وإذ بسط الليل جناحه كانت قد وطدت عزمها أخيراً: أنها ستنفذ ما ارتأته أخواتها، وجاءها زوجها الخفي ولاطفها قليلاً ثم راح في غفوة عميقة.

أبعدت بسيشة مخاوفها عنها وراحت تشجع نفسها ومنحها القدر قوة وصلابة، فقبضت على السكين وتأهبت ثم أزاحت الستائر عن المصباح. هالها ما وقعت عليه عيناها، يا لروعة جماله! إنه إله الحب والجمال! ذلك الذي يحتويه فراشها، وارتفع لهب المصباح فجأة إذ وقع ضوءه على وجه كيوبيد.

هالها ما وقت عليه عيناها، فهمت بأن تبعث بالسكين إلى طيات قلبها هي في ندم محض، وسقطت على ركبتيها في فجاءة الصدمة، وشارفت أن تفقد وعيها، وسقطت السكين من يدها وهي تتأمل هذا الوجه الإلهي، وتجيل بصرها في خصلات شعره الذهبية التي أكسبتها الألوهية جمالاً فوق جمال، فتبددت حول وجنتيه الورديتين وحول عنقه الجميل في إبداع ساحر ورأت جناحيه العظيمين وقد علاهما الندى يمتدان

بجواره في مهابة ملؤهما ريش ناعم ثمين، نعم ما أجدره أن يكون ابناً لفينوس.

ووقع نظرها على قوسه وسهامه ملقاة في نهاية الفراش فاستلت سهماً من غمده وجرحت به إبهام يدها، وارتمت على زوجها تمطره بوابل من قبلاتها، مبهورة الأنفاس مأخوذة وذكرت أنه الآن قد يهجرها إلى الأبد بعد أن خانت وعدها فارتعدت في خيفة وإشفاق، إنها لن تقوى الآن على فراقه لحظة واحدة، ثم سقطت نقطة من زيت المصباح على كتف الإله فهب من نومه، واكتشف خيانة حبيبته، أنها لا تثق به وقد أخلت بوعدها، فترك أحضانها وولى هارباً عنها.

ولم تدعه يذهب، فتعلقت بجناحيه وهو يطير في الفضاء ولكنها لم تلبث أن سقطت منهوكة القوى، وبينما هي ملقاة على الأرض جاءها حبيبها على شجرة صفصاف قريبة قائلاً: يا لي من أحمق! لقد خففت لإنقاذك بعد أن قضت عليك أمي فينوس أن تكوني طعاماً لوحش ضار، عصيتها وأتيتك في القصر منقذاً ونصيراً وأخذت مكان الوحش وجعلت منك زوجتي، إنني أحبك فيكون جزائي سكينا حادة تقابلين بها حبي، أتحرمين علي أعيني الحافلتين حباً وهياماً رؤيتك على هذا النحو القاسي؟ كم بذلت من جهد لكي أبعد عنك تلك الخواطر المسمومة كم أوصيتك وعاهدتك باسم حبنا، أما الآن فليس لي إلا أن أهجرك، ليس لدي من عقاب أكثر صرامة.

وجمع جناحيه وانطلق طائراً يشق الفضاء الرحيب المترامي، وظلت ملقاة على الأرض ترنو إلى حبيبها الطائر بعيداً عنها حتى اختفى في النهاية، وراحت تتأمل مصيرها وقد أغلقت أمامها كل السبل فلم تتمالك إلا أن تلقي بنفسها في النهر القريب.

كان "بان" إله الرعاة يجلس على حافة النهر ممسكاً بمزماره يرسل منه ألحاناً شجية، وهو يرقب قطيع غنمه يرعى عن كثب وإذا به يرى بسيشة تلقي بنفسها في النهر فيخفف لإنقاذها ويصعد بها إلى الشاطئ قائلاً:

–أيتها العذراء الجميلة لست إلا راعياً صغير الشأن ولكن الأيام قد أكسبتني حكمة وخبرة، ويخيل إلي أنك – بعينيك الحزينتين وتنهداتك الحارة الطويلة وخطواتك المضطربة – أنك ضحية حب جائح عنيف، فاستمعي إلى كلماتي، ولا تلقي بنفسك إلى التهلكة، انفضي عنك ثقل هذا الحزن اليائس واتجهي بصلاتك إلى كيوبيد فهو عاشق عذب الطباع، اكسبي حبه بأن تسأليه المغفرة في صلواتك.

وذهبت بسيشة تبحث عن حبيبها، ولم تكن تعرف أنه طريق الفراش في بيت أمه فينوس، ولاقت الأمرين في بحثها عن فقيدها، إذ كانت فينوس تترصد خطواتها حانقة حاقدة ولكن بسيشة لم تيأس ودأبت على البحث يحدوها حبها العميق، أما كيوبيد فلم يطق هذا الفراق المضني، فما أن وجد النافذة مفتوحة في مرة من المرات حتى طار إلى حبيبته فوجدها نائمة وقد أنهكها طول البحث ولوعة الفراق، فأيقظها برفق قائلاً:

– لقد أشرفت يا حبيبتي على الهلاك في النهر فامكثي الآن مع أمي هنا واسأليها الصفح والمغفرة، أما أنا فمتجه إلى أبي لأنهي إليه كل شيء

وانطلق عالياً يخترق الفضاء الرحب نحو السماء وألهمه الحب حماساً وقوة فراح يرتفع في السموات العليا حتى وصل إلى أبي الآلهة جميعاً، وما أن رأى جوبيتير ابنه كيوبيد حتى احتضنه في شوق بالغ قائلاً: "آه يا كيوبيد كم أثرتني بأعمالك الطائشة الهوجاء، ولكني سأحقق كل رغباتك مع ذلك، لقد شببت على يدي ويحزنني ألا تجاب مطالبك" ثم أمر "ميركري" أن يدعو الآلهة إلى الاجتماع فوراً في قاعة الجلسات واتخذ مكانه على العرش ووجه إليهم الخطاب:

"أيها الآلهة المقدسون، لا شك أنكم جميعاً تعرفون هذا الفتى. أما الجديد في الأمر فهو أنه قد اختار عذراء من بين البشر لتكون زوجته. وإني أهنئه وأرجو أن يجني ثمار حبه وأن يعيش معها في سعادة حتى الأبد، لقد كنت دائماً أتمنى أن أرى اليوم الذي يعزم فيه على الزواج وكم أنا سعيد إذ تتحقق أمنيتي الآن".

وأهاب بميركري أن يأتي لهم ببسيشة، فما أن وفدت حتى قدم لها خمراً إلهية قائلاً: "إليك هذه الكأس تكفل لك الحياة الهانئة مع كيوبيد".

واجتمع شمل الآلهة حول مائدة العرس الإلهي، يتصدرها كيوبيد وبجانبه عروسه وشرب الجمع نخب هذا العرس، وفاح أريج الزهور يتضوع عبقاً موحياً بالهناء، وأغنيات أبوللو تتصاعد في عذوبة، وراحت فينوس ترقص رقصها الإلهي على نغم الموسيقى.

صور غرامية من الأدب الإنجليزي

جين اير

شارلوت برونتي ١٨١٦ـ ١٨٥٥

تقديم للكاتبة:

لا تنفصل حياة شارلوت برونتي عن حياة عائلتها فقد ارتبطت مصائر أفراد هذه العائلة في وحدة لا تتجزأ. كان القس باتريك رجلاً غريباً يسكن في مقاطعة يوركشير في شمال إنجلترا، ماتت عنه زوجته وألقت عليه بعبء تربية أولادهما الستة ولم يمض القليل من الزمن حتى فقد ابنتيه الكبيرتين إذ أودى بهما السل فأرسل بقية أولاده إلى معهد لتربية أبناء القسس، ولكن مدير المعهد طردهم إذ توسم فيهم مخايل التمرد، فعهد إلى خالة الأولاد أن تتولى أمر ثقافتهم.

وكانت العائلة تضع كل آمالها في الولد الوحيد برانول برونتي، ولكنه لم يحقق شيئاً من الأمل العتيد، بينما أصاب أخوانه نجاحاً كبيراً في ميدان الكتابة ولو أن شهرة الأختين الصغيرتين لم تأت إلا متأخرة. وكانت الأخوات يشتغلن بالكتابة سنين طوالاً في ظروف قاسية مرهقة من الفقر والعوز حتى كن لا يجدن – أحياناً– ثمن الورق يكتبن عليه، وفي سنة ١٨٤٦ نشرت الأختان شارلوت وآن كتاباً من الشعر ظهر بأسماء مذكرة مستعارة – خوفاً منهما ألا يقبل على قراءته أحد لو أنه ظهر باسميهما الحقيقيين ولم تمض سنة حتى نشرت إميلي كتابها العظيم "مرتفعات وذرنج"

ونشرت شارلوت قصتها الخالدة "جين إير" ثم تزوجت مساعد والدها– على رغم ما أبداه الأخير من اعتراض، وكان سقم بنيتها المتزايد سبباً في موتها المبكر وهي في التاسعة والثلاثين.

ملخص القصة:

فزع جمهور القراء عند ظهور "جين إير" لأول مرة سنة ١٨٤٧ ويبدو أن الناس وجدوا لذة كبيرة في هذا الرعب الذي ألقته في نفوسهم تلك القصة الخالدة فتهافتوا عليها وكانت نجاحاً كبيراً وعاجلاً في عالم القصة، وليس من الصعب أن نقول أن "جين إير" ليست إلا تاريخ حياة مؤلفتها بعد أن درسنا حياة شارلوت برونتي دراسة وافية، ولكن من الصعوبة بمكان أن نكتشف إلى أي حد تعتبر "جين إير" صورة لتلك الروح الثائرة التي تسكن في أعماق هذا الجسد الوديع.

كانت "جين إير" ابنة لقس ماتت زوجته وتركت ثروة لم يلبث أن انتزعها جدها، وتولت خالة الطفلة تربيتها وكانت تحقد عليها أشد الحقد، وكان ابن خالة "جين إير" يسيء معاملتها وأحياناً يعذبها، جاءت تشكو من سوء خلقه فكان جزاؤها الإبعاد في معهد للتعليم هو "معهد لودد" حيث اعتبرت مثلاً للأخلاق الفاسدة ونكران الجميل، ويشاء القدر أن تصاب أقرب صديقاتها إلى قلبها بمرض يودي بحياتها، وأن تتزوج المدرسة الوحيدة التي كانت تعطف عليها وتحسن معاملتها، ولم تيأس جين مع كل هذا بل أتمت دراستها وأصبحت هي نفسها مدرسة في المعهد، وما أن

بلغت سن الثامنة عشرة حتى تركت معهدها والتحقت بخدمة مستر دوشستر في قصر (ثورن فيلد) كمربية لابنته (اديل).

وعندما جاءت جين إير إلى ثورن فيلد لم تكن تعرف شيئاً عن حقيقة ما يدور حولها، كل ما كانت تعرفه هو أن أديل التي ما زالت قاصرة هي ابنة صاحب هذه المقاطعة، كان هناك أيضاً مسز فيرفاكس الخادمة وهي امرأة طيبة، كانت الحياة في (ثورن فيلد) جميلة ناعمة، ولكن كان يخيل إليها أحياناً أن ثمة غموضاً يحيط بهذا المكان.

وفي يوم اشتد نزول الثلج فيه خرجت جين للنزهة وتصادف أن قابلت رجلاً جميل الطلعة أخذ يحادثها بعض الوقت وعاونته هي على امتطاء جواده إذ كان قد آذى ساقه بعض الشيء وهو ينزل عن ظهر الجواد، وعندما عادت إلى المنزل عرفت في هذا الرجل مستر روشستر صاحب المنزل الذي تعمل فيه، دعاها مستر روشستر ذات مساء لتناول الشاي معه، وأخذ يحدثها بعض الوقت في مسائل مختلفة ثم صرح لها بأن أديل هي ابنته وإن كان غير واثق من ذلك تمام الثقة، وأن أمها راقصة فرنسية كان له بها صلة استمرت لأمد قصير.

ويزداد الغموض المحيط بقصر ثورن فيلد تعقيداً حينما ترى جين أن النار تشتعل في غرفة مستر روشستر، وأن هذا الأخير لم يبد أي اهتمام لهذا الحادث بل اعتبره أمراً عادياً، وفي ذات ليلة دعا مستر روشستر جماعة من أصحابه إلى حفل أقامه لهم في ثورن فيلد، وكان من بين المدعوين مس

بلانش انجرام التي كان مستر روشستر يعتزم خطبتها، وتعجب جين من نفسها عندما تحس بالغيرة نحو هذه المرأة، ولكنها تؤنب نفسها على هذا الإحساس الغريب.

ودعيت جين في يوم من الأيام إلى قريتها، لقد مات ابن خالتها، أما خالتها القاسية القلب فقد كانت طريحة الفراش وكانت طول مدة غياب جين تعمل على ألا يتصل بها أحد من أقارب والدها وذلك بسبب كرهها الشديد لجين ورغبتها في إبعادها عنها، وتذهب جين إلى مستر ثورن فيلد تسأله أن يسمح لها بالذهاب ولشد ما كانت دهشتها حينما رأته يصارحها بحبه وبرغبته في ترك إنجرام والزواج منها.

وتقبل جين الزواج من روشستر والبقاء معه في ثورن فيلد لأنها كانت تحس نحوه بعاطفة الحب، ولقد أحبته منذ رأته للمرأة الأولى، ولكن يحدث ما لم يكن في الحسبان إذ تعلم جين فجأة أن روشستر متزوج وأن زوجته مازالت على قيد الحياة ولو أنها مصابة بمرض عقلي وأنها هي مبعث الحوادث الغامضة التي ما تفتأ تقع بقصر ثورن فيلد، ما أن تعلم جين بهذا الخبر الفاجع حتى تولي هاربة إلى قريتها حزينة يكاد اليأس يقتلها، وينقذها من الهلاك قسيس طيب القلب يقع في حبها ويقترح عليها الزواج به، ولكن تحس جين بشيء غريب يدفعها إلى أن تذهب إلى روشستر لأنه في أشد الحاجة إليها، فلا تزال تبحث وتنقب حتى تعلم أن زوجة روشستر المجنونة قد أحرقت قصر ثورن فيلد وأنه أي روشستر أراد إنقاذها من الهلاك ففقد بصره ورجليه وقد أصبح الآن كسيحاً ضريراً. تنطلق جين إلى

قصر ثورن فيلد لرؤية حبيبها المنكوب وهناك ترى روشستر ويحس هو بوجود شخص غريب بالقرب منه فيقول:

المشهد الغرامي:

– من هذا ..؟

من المتكلم ..؟

– لقد وصلت هذه الليلة فقط وجميع من هنا يعرفونني.

– يا إلهي! – ترى من تكون..؟ ولكن ما هذا الوهم الذي طرأ علي؟ ما هذا الجنون الذي سيطر على عقلي؟

– إنه ليس وهماً يا سيدي كما هو ليس بالجنون، إن عقلك لا يزال على رجاحة ولم يتطرق إليك الوهم أو الجنون.

– ولكن من أين يأتي هذا الصوت؟ ترى هل هو مجرد صوت؟ أوه! لا أستطيع رؤية شيء مما حولي، لا أستطيع .. يجب أن أتحسس مبعث ذلك الصوت وإلا فقدت صوابي!

وراح يجول بيديه حوله باحثاً عني فأمسكت بيده وأطبقت عليها بين يدي.

– هذه هي أصابعها! أصابعها الصغيرة.. الرقيقة!

وانتزع يده من يدي وأخذ يتحسس كتفي ثم عنقي ثم خصري. وصرخ قائلاً إنها جين! ومن تكون غيرها؟ إنها هي بعينها! هذا هو جسمها اللدن وهذا قوامها.

فأجابته قائلة: — وهذا هو صوتها.. إنها بكليتها هنا وأن قلبها هنا كذلك.

بارك الله فيك يا سيدي! كم يسرني ويسعدني أن أكون بجوارك الآن.

– "جين إير! جين إير!".. كان هذا كل ما نطق به.

فقالت له مطمئنة: "نعم جين إير يا سيدي العزيز لقد استفسرت عنك وهاأنذا أعود إليك ثانية.

– حقيقي ما أسمع؟ – هل عادت إليَّ جين حبيبتي بنفسها لحماً ودماً.

–إنني بين يديك.. إليك جسمي فتلمسه رويداً لعل هذا الشك القاتل يزول عنك.. إن جسدي ليس بارداً مثل جثث الموتى كما أنني لست ظلاً كالأشباح.

– نعم هذه هي معبودتي! هاتان اليدان.. وتلك الملامح.. هي بعينها حبيبتي، ولكن هل هذا ممكن؟ أبعد هذا البؤس الذي أشقاني تعود إلى حبيبتي! إنه حلم، حلم مثل تلك الأحلام التي كنت أضمها فيها بين

ذراعي كما أضمها الآن، وأقبلها كما أقبلها الآن، كان يتراءى لي أنها تحبني وكنت أتمنى أن تعيش معي إلى الأبد.

– لن أتركك منذ اليوم.

– لن تتركيني؟ أهكذا تقولين؟ ولكنني كنت أستيقظ في كل مرة فأعلم أن الأحلام تهزأ بي، كنت أعيش وحيداً وكانت حياتي كلها ظلاماً ووحدة ويأساً.. كانت روحي عطشى ومحرم عليها ماء الحياة، وكان قلبي جائعاً محروماً، أيتها الرؤيا الوديعة الساكنة بين ذراعي سوف تذهبين عني كما ذهب أمثالك قبلك، ولكن بالله لا تذهبي قبل أن تقبليني.. قبليني يا حبيبتي قبل ذهابك.

– هاك قبلة يا حبيبتي، وهاك قبلة ثانية!

ووضعت شفتيها على عينيه وقبلته – هاتان العينان اللتان كانتا تضيئان فأطفأهما ظلم القدر – ثم أزاحت شعره عن جبهته وقبلتها، وفجأة أحس بأنه قد أفاق من كابوس ثقيل: لقد صدم حقاً حينما تحقق له أن كل ما يدور حوله ليس مجرد حلم.

– هذا أنت – هل أنت يا جين؟ هل عدت إلي ثانياً، إذن؟

– نعم إنني جين.

– وهل ما زلت حية؟ ألم تغرقي في نهر ما؟ ألم يصبك أذى؟ هل طردك اليأس بعد أن ذبلت ولم يعد استجداؤك يجدي معهم.

– لا يا سيدي إنني الآن امرأة حرة مستقلة ولست في حاجة إلى مخلوق.

– مستقلة! ماذا تعنين؟

– لقد مات عمي وترك لي خمسة آلاف جنيها.

– هل هذا حقيقي؟ لم أكن لأتصور شيئاً من هذا. ولكن مالي أسمع في صوتها هذه الرنة الحنون، هذه الرنة الشجية الرقيقة، إنها تثلج قلبي، إنها تعيد إلي أنفاسي –جين ماذا سمعت؟ هل أصبحت حبيبتي امرأة مستقلة؟ امرأة ثرية؟

– نعم يا سيدي إنني الآن امرأة واسعة الثراء، فإن لم تسمح لي بالبقاء معك فسأبني لنفسي منزلاً ملاصقاً لك حتى إذا ما أردت أن تقضي ليلة في صحبة رفيق أمكنك أن تأتي إلي في يسر وسهولة.

– ولكنك الآن غنية يا جين ولا شك في أن لك معجبين يطلبون ودك فلا يجدر بك أن تكرسي نفسك لرجل أعمى مقعد مثلي.

– لقد أخبرتك يا سيدي بأنني مستقلة وغنية، أي أنني سيدة نفسي.

– وسوف تبقين بجواري؟

– بكل تأكيد ما لم تمانع أنت، سوف أكون لك زميلة وممرضة وخادمة، إنني أراك وحيداً لذا سوف أكون صديقة وحدتك.. أقرأ لك، وأرافقك في خروجك وأجلس معك وأقوم بتنفيذ ما تأمرني به، سوف أكون لك عينين ويدين، أرجو يا سيدي العزيز أن تطرد عنك شبح هذا الحزن القاتل وأن تكف عن التفكير في تلك الهموم لأنك لن تكون وحيداً منذ هذه اللحظة، نعم لن تكون وحيداً ما حييت.

ولم ينطق بكلمة؛ كان يبدو مكتئباً حزيناً، وتنهد من أعماقه ثم فتح شفتيه كما لو كان سينطق بشيء ولكنه عاد فأغلقهما ثانية، وشعرت أنا بشيء من الارتباك حيال هذا الصمت العجيب، وبدأ يخامرني إحساس غريب، ربما كنت متسرعة فيما قلته منذ لحظة، ربما تجاوزت حد المعقول، لقد سبق أن طلب مني أن أكون زوجته وعلى هذا بنيت كل كلامي الآن، لقد كنت أتوقع أنه سوف يرحب فوراً بأن أكون زوجته ولكن لم يبد منه ما يدل على ذلك، وفجأة خطر لي أنني ربما كنت مخطئة في جميع تصرفاتي، ربما كنت أضحوكة أمامه بسبب غبائي، وبدأت أنسحب من بين ذراعيه برفق، ولكنه قريب من نفسه باشتياق عظيم.

– لا.. لا تذهبي عني لا تتركيني وحيداً يا جين، لقد شعرت بالراحة العظمى لقربك، وبالعزاء التام عندما سمعت صوتك، لن أحرم من هذه الراحة وتلك التعزية، لم يبق مني سوى القليل فكوني أنت بجواري لتكملي

هذا القليل الباقي فلتسخر الدنيا مني كيفما يحلو لها، فلتقل أنني معتوه وأنني محب لذاتي فلن أهتم بشيء من هذا الجسد المنهك وسيكون انتقامها مروعاً.

– حسناً يا سيدي سأبقى بجوارك كما عاهدتك أن أبقى.

– ولكن ربما كنت تقصدين شيئاً يخالف ما أفهمه، ماذا تقصدين من بقائك بجواري، ربما كنت عازمة على أن تقومي بخدمتي وأن تلازميني أينما حللت وأن تعني بتمريضي ولا شك في أن قلبك الحنون سوف يجعلك تضحين بكل شيء في سبيل راحتي ويجب علي إزاء كل هذه التضحيات أن أكون شاكراً، ولذا فيجب علي أن أحبك حباً أبوياً: هل تظنين ذلك؟ أريد أن أعرف رأيك.

– إنني طوع أمرك يا سيدي.. سوف أقنع بأن أكون لك ممرضة لو فضلت ذلك.

– ولكنك لن تظلي ممرضة إلى الأبد، يا جانيت أنك مازلت صغيرة،ويجب أن تتزوجي يوما ما.

– هذا لا يهمني.

– لا. يجب عليك أن تفكري في هذا يا جانيت: آه، لو لم أكن على هذه الحال –كتلة عمياء – لكنت أجعلك تفكرين!

وراح في حزن عميق، أما أنا فعلى العكس منه أصبحت أكثر مرحاً وعادت إلي شجاعتي: لقد فتحت هذه الكلمات الأخيرة التي فاه بها ذهني وجعلتني اكتشف نقطة الخلاف التي تحول بينه وبيني، ولما لم تكن بذات أهمية عندي لذا فقد زال عني ذلك الحزن الذي عكر علي صفوي منذ قليل، ثم تصنعت حديثاً مرحاً وقلت له ويدي تعبث بشعر رأسه الطويل.

– إن هذا الشعر الطويل يذكرني بريش النسور، ولكن خبرني: هل طالت أظافرك فأصبحت تشبه مخالب الطيور أم مازالت تحتفظ بشكلها البشري؟.

فأخرج يده المشوهة من صدره وأراني إياها قائلاً:

– لم يبق في هذا الذراع أثر ليد أو لظفر ولقد أصبح شكله مخيفاً! أليس كذلك يا جين؟

– إنه لمن المحزن حقاً أن تصبح هكذا، وإنه لمن المحزن أن أرى عينيك وأن أرى هذا التشويه الذي في جبهتك، ومع كل هذا أجد نفسي معرضة للوقوع في حبك وهذا هو أخطر ما في الموضوع.

– لقد ظننت أنك ستنفرين يا جين عندما ترين تلك الذراع المبتورة وذلك الوجه المشوه المرعب.

– حقاً؟.. لا تقل شيئاً من هذا وإلا خيبت ظني في حكمك على الأشياء، والآن سوف أذهب دقيقة لكي أحرك نار المدفأة هل تستطيع أن تشعر متى تكون النار متوهجة.

– نعم إنني أرى بعيني اليمنى توهجها، تبدو كضبابة متوهجة.

– وهل ترى ضوء الشموع؟.

– إنها ضعيفة جداً كل منها كسحابة مضيئة.

– وهل تراني؟

– لا يا حبيبتي، ولكني أشكر الله على كل حال فما زلت أستطيع أن أسمع صوتك الحنون وأن أشعر بوجودك بجواري.

– ومتى تتناول عشاءك.

– لست أتعشى مطلقاً.

– ولكنك سوف تتناوله هذه الليلة فإنني جائعة وأنت كذلك ما في ذلك شك، إنك تنسى عشاءك.. هذا كل ما في الأمر.

وأعددت له طعاماً شهياً ثم نظمت له الغرفة فبدت جميلة، كانت روحي شبه منتشية لما اعترى نفسي من السرور فأخذت أحدثه أثناء العشاء وبعد الانتهاء منه، ولم يكن هو أقل مرحاً بل كان السرور بادياً على

وجهه لأنه كان يعلم تمام العلم أنني المرأة الوحيدة التي تلائمه، لقد أبعدت عنه كل ما من شأنه أن يعزي نفسه الحزينة ويعيد إليه روحه التي فقدها، ويا له من شعور غريب! ذلك الذي غزا قلبي لقد بدأت أشعر بأنني أعيش بكليتي لقربي منه، لقد أعاد إلى حياتي ضوءها وكامل جوهرها، بدأت أحس بالحياة في وجوده وراح هو يبتسم وظهرت على هذا الوجه الذي حرم نعمة البصر سمات الإشراق فتفتحت ملامحه وانبسطت، لقد وجد حياته هو الآخر في قربي.

وبعد أن انتهينا من العشاء أخذ يسألني عما حدث لي مدة غيابي، ماذا كنت أفعل وأين كنت وكيف عثرت عليه، ولكني أجبته إجابات مقتضبة فلم يكن الوقت يسمح بالإسهاب، لقد كان كل همي منحصراً في الترفيه عنه، لذا لم أشأ أن أطرق مواضيع من شأنها أن تثير عاطفته الساكنة في قلبه، وتخلل حديثنا لحظة سكون فرأيته يتعلق بي خائفاً ويقول "جين".

– هل أنت حقيقة مخلوق بشري يا جين؟ أواثقة أنت من ذلك؟

– إنني أعتقد ذلك من أعماق ضميري.

– ولكن خبريني كيف جئت فجأة إلى هذه الحجرة في هذه الليلة المظلمة الحزينة؟ لقد طلبت كوب ماء من خادمتي فناولتني أنت إياه، سألتها مستفسراً عن شيء فسمعت صوتك يرن في أذني عذباً حنوناً.

– ذلك لأني جئت بدلاً من خادمتك.. ماري.

– لقد سحرت نفسي.. هذه الساعة التي قضيتها بجوارك. لقد كانت حياتي مظلمة. خالية، بائسة، طيلة الشهور الماضية؟ لم أكن أفعل شيئاً ولم أكن أنتظر شيئاً، كنت لا أفرق بين الليل والنهار، كنت أعيش ليقتلني البرد عندما تخمد النار في المدفأة ولا أحس بالجوع عندما أسهو عن تناول غذائي، كانت حياتي سلسلة من الأحزان وكنت لا أنقطع عن التفكير في حبيبتي جين.. كنت أريد أن أحتضنها بين ذراعي كنت مشتاقاً لأن تعود إلي أكثر من اشتياقي لنظري، كيف حدث هذا؟ كيف جاءت حبيبتي جين إلى وكيف تقول أنها تحبني؟ هل سترحل عني فجأة كما جاءت؟ كم أخشى أن أتلمسها فلا أراها عندما يأتي الصباح.

وأجبته بالجواب الوحيد الممكن له في هذه الحالة وهو الجواب العملي، فرحت أمر بيدي على حاجبيه اللذين لم يعودا كسابق عهدي بهما كثيفين سوداوين ثم أخبرته بأن عندي دواء يعيد إليهما سابق جمالها وروعتهما. ثم سمعته يقول وهو في شبه حلم:

"... وفي مساء الإثنين الماضي خامرني شعور غريب، شعور أزاح عن نفسي ذلك اليأس القاتل وهذا الحقد الشديد الذي كان يملأ قلبي، شعور غريب أزال هذا الوجوم الذي كاد يودي بي.. كنت قبل ذلك أعتقد أنني لن أراك ثانياً لأنك لا بد أن تكوني قد فارقت هذه الحياة.. أما في هذه الليلة قبل أن آوي إلى فراشي، فقد توجهت إلى الله سائلاً إياه أن لا يأخذ روحي حتى يتسنى لي أن أرى حبيبتي جين وأن أنعم بوصلنا في السماء إلى الأبد.. كنت أجلس في حجرتي أمام هذا الشباك المفتوح، ولأول مرة أحس

بعذوبة هواء الليل العليل، كنت عاجزاً عن رؤية نجوم السماء المتلألئة ولكنني شعرت بنور القمر الساطع يملأ الكون.. في هذا المساء أهاجني الشوق إليك يا جين! آه.. كم كانت روحي تحن إليك وكم كان جسدي يناديك أن تعالي! سألت الله من أعماق قلبي الحزين المعذب أن يكف عن تعذيبي وأن يرحم روحي في وحدتها القاتلة.. لقد استحقت نفسي كل ما أقاسي من الآلام ولكنني لن أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا، فتوجهت إلى الله متوسلاً إليه لكي يمنحني نعمة السلام، توجهت إليه طالباً كل ما تمنيت من سعادة وهناء وسلام، ولقد كانت الكلمات التي أطلقتها شفتاي "جين! جين! جين!"

– وهل صرخت منادياً بتلك الكلمات؟

– نعم لقد صرخت بصوت عظيم: جين ولو كان أحدهم سمعني وأنا أنادي بهذا الشكل لظنني فقدت صوابي: لقد لفظت هذه الكلمات بجنون وكان ذلك مساء الإثنين الماضي في وسط الليل تقريباً، نعم، ولكن تبع ذلك شيء ربما جعلك تعتقدين أنني كنت واهماً، لست أنكر أن في دمي شيئاً من هذا الوهم ولكن هذا حدث بالفعل حدث كما سوف أقصه عليك الآن. عندما صرخت قائلاً (جين! جين! جين!) سمعت صوتاً ليس هو غريباً علي ولكنني لم أعرف مصدره، سمعته يقول (انتظريني لأنني سوف آتي) وبعد لحظة راح يهمس في الهواء ويقول (جين! أين أنت! أين أنت!).

عشيق الليدي تشاترلي

د.ه. لورانس

تقديم للكاتب:

ولد لورنس سنة ١٨٨٥ وكان أبوه عاملاً من عمال المناجم في مقاطعة ديبشير بإنجلترا، وقد استطاع الصبي بذكائه العتيد أن يشق طريقه إلى الصفوف الأولى بين زملائه، غير أن مرضاً صدرياً ألم به اضطره إلى الانقطاع عن الدراسة والتفرغ للكتابة وقد اتهم أثناء الحرب العالمية الأولى بأنه جاسوس ألماني لأنه كان يحب ألمانية تزوجها، وارتحل كثيراً فطاف بمعظم أنحاء أوروبا وأمريكا الجنوبية. ظهر أول مؤلف له سنة ١٩١١ فأثار عاصفة من النقد والتجريح، إذ تعرض لمسائل جديدة شائكة كانت حتى أيامه أرضاً بكراً لم يطرقها طارق، وكان لورنس يصب اهتمامه على الجنس، ولهذا صودر أحد كتبه في إنجلترا، وكان يقابل من الكثيرين بشيء غير قليل من المقت والنفور حتى عهد قريب إلا أن جمهور المفكرين والنقاد بدأوا يقدرون هذا الكاتب المبدع ويتفهمون فلسفته.

ملخص القصة:

تتصل قصة (عشيق الليدي تشاترلي) عن مساوئ هذا الجيل الذي نعيش فيه، بل هي تعمد إلى أن تهدي القارئ إلى تلك المساوئ لكي يتخذ

الحيطة لها ويحاول أن يقاوم ذلك التيار الذي يسير بالمجتمع إلى الهلاك. وتنادي فلسفة لورنس بهجر تلك الحياة التي نحياها تلك الحياة التي تستهين بكل ما هو عزيز لدينا، والرجوع إلى حياة فطرية خالية من الزيف. ويعمد لورنس في قصته هذه إلى أن يبين لنا كيف شوهت الأفكار الحديثة عقول الناس وأفسدت عليهم حياتهم، وأماتت عواطفهم وإحساساتهم.

إن هذه المدينة الحديثة بما فيها من معتقدات وآراء كلها نفاق، قد حرمتنا من أن نحيا تلك الحياة التي خلقنا من أجلها والتي نحس بها في أعماق كياننا، هذه الحياة التي نشعر بها في أعماق نفوسنا ومع ذلك لا نستطيع الجهر بها خوفاً من لوم المجتمع، ذلك المجتمع السقيم الميت الذي يعيش أفراده تحت كابوس ثقيل هو كابوس العلم والمظاهر الخداعة. وهكذا يبدأ الكاتب الفيلسوف قصته بعرض شيق لهذا المجتمع الذي يحيط (بالليدي تشاترلي) المجتمع الراقي الذي شغلته مباهج المدينة الحديثة عن كل ما هو فطري، هذه الطبقة الأرستقراطية التي لم تعد صالحة لأن تشعر بعاطفة الحب أو أن تحس بميلها إلى الجنس؛ لأنها قد ماتت من الداخل، ولأن عواطفها قد زالت لتحل محلها تلك المظاهر الكاذبة، إن كل ما يحيط بهذا المجتمع من مظاهر كاذبة يراد بها تعويض هذا النقص الروحي والجسماني الذي أصاب الأفراد في الصميم.

ويمثل اللورد تشاترلي هذا المجتمع السقيم تمثيلاً صادقاً، فهو رجل أرستقراطي واسع الثراء يعيش في قصر فسيح توفرت لديه كل مظاهر العظمة والأبهة والنعيم، غير أنه يحيا حياة خاوية، إن كل ما يحيط به ليس

سوى مظاهر خلابة يخدع بها نفسه ويخدع من يحيطون به، ولم تكن ليدي تشاترلي زوجته على شاكلته، بل كانت تريد أن تنعم بحياة حقيقية يعجز زوجها المعقد عن فهمها، أو عن أن يقدرها حق قدرها، كانت تريد أن تشبع نفسها الجائعة وتطفئ ظمأ روحها العطشى، ولما لم تجد من زوجها رجلها الذي يشبع رغباتها ويطفئ نار الحب المتأججة في أعماقها، أخذت تبحث عن رجل آخر يستطيع أن يفهمها، رجل لم تفسده بعد تلك المدينة بمظاهرها ونفاقها، أخذت تبحث عن ذلك الرجل الذي يملأ فراغ نفسها الخاوية، فلم تجد سوى حارس القصر الذي أحبته وأخذت تزوره في كوخه الحقير بين الحين والحين.

المشهد الغرامي

ما أن أذنت الشمس للمغيب حتى تركت الليدي تشاترلي ضيوفها وشأنهم، وانسلت هاربة من القصر، وقد وضعت نصب عينيها كوخ الحارس (ميلر) الذي يقع في قلب الغابة، وجعلت تعدو بشدة لكي تبتعد عن هذا القصر، وكأنها تخشى أن يناديها أحد من سكانه ويدعوها إلى العودة إليه. وهناك على مقربة من الكوخ رأت ميلر واقفاً بالقرب من حظائر الدجاج يشرف بنفسه على بياتهم. قالت في صوت متقطع وهي تحدق إليه من بعد ولا تكاد تراه لفرط ما أصابها من اضطراب:

– لقد جئت لألقي نظرة على دجاجك.. كيف حاله الآن؟

– إنه على ما يرام.

واقتربت كوني من حظائر الدجاج، وجلست بالقرب من واحدة منها، وراحت تراقب الدجاج في شغف وانتباه عظيمين، واسترعى انتباهها دجاجة صغيرة كانت لا تزال خارج الحظيرة، تروح وتجئ كيفما يحلو لها، غير عابئة بنداء أمها وصياحها، وغرقت كوني في بحر من التأملات: يا لها من مخلوق سعيد حقاً.. تلك الدجاجة الضئيلة.. إنها تشعر شعوراً تاماً بأنها تحيا وتعيش.. تحيا بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، تحيا حياة نقية طاهرة، حياة مشتعلة مملوءة حيوية ونشاطاً، حياة جريئة غير هيابة ولا وجلة! إنها على صغرها وضآلة حجمها لا تهاب شيئاً ولا تخاف مخلوقاً أياً كان.. الحياة عندها ما هي إلا لعبة يجب عليها أن تتمرن عليها وتتقنها لكي تعيش.

وأحست كوني لأول مرة بمرارة الحياة التي تحياها هي والتي سيذهب ضحيتها شبابها الغض النضر.. شعرت بهذا الحزن العميق الذي يكمن في كيانها.. الحزن على أنوثتها التي تذوي وتذبل في وحدتها.. إنها لم تعد تستطيع مع ذلك صبراً.

وبينما كان هو يجلس بجوارها يتأملها في اهتمام، إذ به يرى دمعة تنحدر فجأة على خدها وتسقط على ذراعيها. أخذته الدهشة والحيرة؛ فنهض واقفاً، وابتعد عنها قليلاً، وللوقت تحرك شيء غريب كان ساكناً في أعماقه منذ أمد بعيد.. شيء أراد هو أن يخفيه، وحاول أن يخمد ناره التي اشتعلت فجأة في داخله، فأولاها ظهره لكي يتفادى النظر إليها، ولكن دون جدوى، وأخيراً التفت إليها ثانية، كانت تجثو على ركبتيها، وتمد

ذراعيها إلى الأمام، وتحدق في الفضاء وهي في شبه ذهول.. كانت تسبح في عالم مظلم مخيف، عالم الوحدة والصمت المطبق الرهيب.

وإذ به يحس بنار العاطفة تتأجج فجأة بين جوانبه.. اقترب منها وأخذ مكانه بجوارها دون أدنى تردد أو تفكير، فازداد لهيب النار التي تشتعل في داخله وعلا أوارها. وراح يحملق في وجهها، وينظر إليها نظرات العارف المتفهم.. كانت تتنهد في جنون، أدارت وجهها بعيداً محاولة أن تخفي ما كانت تقاسيه من عذاب.. عذاب الوحدة القاتلة!

وأحس بقلبه يذوب فجأة على أثر هذه التنهيدات العميقة وتلك الدموع الحارة التي راحت تنسكب من مقلتيها في غزارة، فوضع كلتا يديه على ركبتها في رفق وقال: "ولم البكاء؟"، وللوقت أحست بقلبها يتصدع فجأة بين ضلوعها، فدفنت وجهها بين راحتيها وأجهشت بالبكاء.

ووضع يده على كتفها ثم جعل يمر بها على ظهرها في حنان عظيم، وأخرجت هي منديلها وجعلت تمسح وجهها المبلل.. قال في صوت هادئ: "هلم بنا إلى داخل الكوخ"، وأمسكها من ذراعها في رفق وقادها إلى الداخل، وكانت هي تقف ساكنة تحملق في وجهه الشاحب الذي لم تعد تلمح فيه أدنى تعبير، هذا الوجه الذي أسلم نفسه لمصير القدر المحتوم. وأطاعته في صمت وسكون وأحست بيده الحانية تتحسس جسمها المشتعل باحثة عن وجهها، وما أن لامسته حتى راحت تمر عليه في حنان بالغ ورفق عظيم، وأخيراً شعرت بوجهه يقترب من وجهها وبشفتيه تطبعان

على وجنتها الدافئة قبلة طويلة حارة. ما هذه السعادة التي هبطت على روحها فجأة؟ وهل كان كل ذلك ضرورياً لكي تشعر بهذا الارتياح العظيم الذي أثمل روحها المعذبة؟ ثم كيف انقشعت تلك السحب التي كانت تخيم على روحها منذ قليل؟.. هل كان ذلك الشيء ضرورياً حقاً؟ هل هذا صحيح؟

وجعل عقلها المتبلد المعذب يتألم ويحاول أن يجد تعليلاً لهذه الفرحة العظمى التي شملت قلبها وأثملت روحها، أخذت هذه الأفكار تتنازعها وتعذبها: هل هذا صحيح؟ هل هذا الشيء ضروري حقاً؟ أجل! إنها الآن تعلم حق العلم أنها لو وهبت نفسها لهذا الرجل الغريب، لو أنها أسلمت روحها بين يديه، إذن لاستراحت روحها المعذبة، وأسعد قلبها الحزين أما أن تمنعت وابتعدت فستشقى وتتعذب إلى الأبد، كانت تشعر بأنها قد هرمت وأن ثقلاً من السنين قد كبلها فلم تعد تستطيع أن تحمل هذا العبء الثقيل وحدها.

كان هذا الرجل الغريب يرقد إلى جوارها يشملهما صمت وسكون رهيبان. أسعيد هو؟ ترى فيم يفكر؟ لم تكن تستطيع أن تتكهن بشيء من هذا، فهي لا تعرف هذا الرجل الراقد إلى جوارها، ولا تعرف شيئاً عن نفسيته الغامضة المعقدة، ولم تشأ أن تعكر هذا السكون الرهيب المقدس الذي يسبح فيه كلاهما فظلت صامتة ساكنة.

ولما بدأ هذا الرجل الغريب يبتعد عنها، هذا الرجل الذي ربط جسدها وروحها برباط الحب الجامح، انطلقت من أعماقها صيحة تعبر عن مدى خسارتها، لقد كانت أنثى كاملة منذ قليل! وتحب أن تكون كذلك إلى الأبد.

ووقف أمامها برهة ولكنه لم يلبث أن فتح الباب وانسل خارجاً، كان القمر يرسل أشعته الفضية فيبدد ظلمة السماء ويضيء الكوخ الموحش، وفتحت هي الباب ووقفت تحملق في الظلام الممتد أمامها باحثة عنه، وما أن رآها هو حتى تقدم إليها وقد علا وجهه شحوب قاتم.

– هل ترغبين في الذهاب الآن؟.

– الذهاب! أين؟

– سأصحبك إلى القصر.

وأغلق باب الكوخ، وعاد فلحق بها وابتدرها بقوله:

– إنك لست نادمة على ما حدث.. أليس كذلك؟

– بلى.. ولم الندم؟ أنادم أنت؟

فرفع بصره إلى السماء وأجاب

– بعض الشيء.. فقد بدأت ثانية من جديد.

– بدأت! ماذا بدأت من جديد؟

– الحياة!

قالت في دهشة

– الحياة!.

– نعم.. هذه هي الحياة.

واستأنفا مسيرهما في ظلام الغابة الموحش، وقالت فجأة:

– ولكنك لست حاقداً علي.. أليس كذلك؟

وأخذها بين ذراعيه.. وكانا قد وصلا إلى بوابة القصر، ففتحها وقال في هدوء:

– هنا سنفترق.

فمدت إليه يدها محيية، ولكنه اقترب منها وأخذ يدها بين راحتيه، وقالت فجأة

– أتريد أن آتي إليك ثانية؟

أجابها على الفور

– نعم! نعم أريد!

واستدارت على عقبيها وراحت تعبر الحديقة، بينما أخذ هو يراقبها وهي تختفي رويداً رويداً في ظلام الليل الحالك.

عبودية الإنسان

سومرست موم

تقديم للكاتب:

ولد سومرست موم عام ١٨٧٤، كان أبوه من كبار الدبلوماسيين الإنجليز وقد أعد ابنه ليصير طبيباً، ويحدثنا سومرست موم عن مدى كرهه لهذه المهنة، وفي كتابه (عبودية الإنسان) ذكر لنا ما قاساه من متاعب أيام كان يعمل في مستشفيات لندن، وفي أحيائها القذرة، ويتميز سومرست موم على غيره من الكتاب بمقدرته الفائقة على الجمع بين الحقيقة وبين الخيال جمعاً يتعسر عليه نفسه التفرقة بينهما، ونحن نعجب حينما نراه يكتب عن نفسه:

(لقد ضمنت كتبي كل ما صادفني في حياتي.. كتبت فعلاً عن عدم إيمان فيليب كاري بعمله لأنه شب على ذلك منذ صغره، وذلك الفصل ليس إلا صورة لما يجول في نفسي، وكتبت عن قصته الغرامية التي كنت أتمنى أن تحدث لي منذ شبابي).

وكان موم معروفاً برواياته المسرحية، ولكنه كتب قصصاً عديدة دفعت بالنقاد أن يطلقوا عليه اسم (موباسان الإنجليزي) نشرت قصته (عبودية الإنسان) لأول مرة في خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥،

ولقد قضى ردحاً من الوقت يعمل في قلم المخابرات السرية الإنجليزي، وجعل من رحلاته موضوعاً لقصصه، وكان للكاتب الفرنسي الكبير (موباسان) أثر كبير عليه، فقد أخذ عنه موم ذلك الأسلوب القصصي الخاص الذي يظهر واضحاً في كتابته.

ملخص القصة:

فقد فيليب كاري أباه وهو لم يزل طفلاً فتولى عمه القسيس تربيته والعناية به وكان عمه رجلاً فظاً غليظ القلب، وكان فيليب صبياً حسن المنظر، جميل الطباع ذا حس مرهف، وكان يعاني من الآثار السيئة التي تتركها في عقله رؤية ساقه الخشبية وكانت ساقه الخشبية تثير شفقة النساء عليه وتترك أثراً سيئاً في نفسه، ولم ينجح فيليب في أن يتم تعليمه في الخارج فاشتغل صرافاً في بادئ الأمر ثم اشتغل بالرسم ولكنه فشل فشلاً ذريعاً.

صمم فيليب على أن يتعلم الطب ليصبح طبيباً كوالده وفي أثناء سني دراسته يلتقي بملدرد روجرز وهي ساقية مليحة القد فيستهويه جسمها الرشيق ويتخذ منها خليلة، وكانت معاشرته لها ليست قائمة على أساس العاطفة أو الحب بل كانت مجرد شهوة جسدية محضة، ويأتي يوم نرى فيه روجرز تهجر فيليب وتذهب لتتزوج، ولم يحزن فيليب لذلك بل تركها تذهب غير آسف عليها، ولكن لم يمضي وقت طويل حتى اكتشفت ملدرد أن زوجها متزوج من غيرها وأنه قد خدعها وأصبح زواجه بها باطلاً وتبحث ملدرد عن فيليب وتطلب إليه مساعدتها فلا يستطيع هو أن يرد

لها طلباً، وبمرور الوقت أصبح فيليب عبداً لهذه المطالب التي لا تنتهي، وعاشت ملدرد في كنف فيليب مدة ليست بقصيرة ولكنها لم تلبث أن هجرته بعد أن بددت كل أمواله.

ثمة شخصية أخرى يقدمها لنا الكاتب: شخصية "ديتروب انتلي" كان هذا الرجل يعمل كاتباً للدعاية في أحد المحال التجارية بأجر بسيط لا يتناسب مع أفراد أسرته التسعة، وكانت أكبر أولاده "سالي" فتاة رائعة الجمال في الخامسة عشرة من عمرها ذات جاذبية قوية وأنوثة مغرية، حدث أن مرض والدها "انتلي" فتولى فيليب علاجه ومنذ ذلك الحين توطدت عرى الصداقة بين فيليب وعائلة انتلي.

ويضطر فيليب أن يقطع حبل دراسته بعد أن بعثرت "ملدرد" ميراثه، ويرفض عمه أن يرسل له شيئاً من النقود لأنه أصبح شديد السخط عليه، ويساعده انتلي في الحصول على وظيفة صغيرة في الشركة التي يعمل بها، ولكن لم تمض مدة كبيرة حتى مات عم فيليب تاركاً له جميع ما يملك. وهنا تعود ملدرد إلى فيليب ولكنها لم تعد كعادتنا بها فتاة رشيقة القوام بل غدت مريضة بائسة، ويوليها فيليب قليلاً من العناية ويصف لها الدواء ولكنها تتركه وتختفي من مسرح القصة حتى النهاية. وبموت عمه يصمم فيليب على أن يستأنف دراسته للطب، ويسافر إلى دوتشير ليعمل عند الدكتور "سوت" الذي كان يعجب به. وما أن ينتهي من دراسته حتى تستيقظ فيه تلك الرغبة المتأصلة فيه منذ صغره: الرغبة في السفر البعيد، وكان طموحاً يريد أن يرى العالم وكان يرى أن هذا هو الوقت المناسب

لكي يشبع هذه الرغبة العنيفة، نراه يرحل شرقاً وغرباً ثم يولي وجهه شطر شرق إنجلترا نحو هذا الإقليم المسمى (بكنث) حيث كانت تقطن عائلة انتلي التي تشتغل الآن بزراعة "حشيشة الدنيار". هناك تجد سالي وقد أصبحت فتاة كاملة الأنوثة شديدة الإغراء.

المشهد الغرامي:

قال لها فيليب:

– سالي.. هل تسمحين لي أن أصحبك إلى المنزل؟.

– لا وشكراً، يمكنني أن أذهب وحدي، فلست خائفة.

– لست أعني هذا، إن ساعة نومي قد حانت، وأحب أن أمضي بعض الوقت في المسير.

ولم تجب سالي بل سار كلاهما جنباً إلى جنب، كان الطريق خالياً، ولم يكن هناك صوت يعكر سكون هذا الليل، وسار كلاهما صامتين. قال فيليب بعد هنيهة:

– ما زلنا في أوائل الصيف ومع ذلك فالحر شديد.

– إن الطقس جميل على أية حال.

ويبدو أنهما تعمدا المسير صامتين؛ لأنهما وجدا سعادتهما في هذا السكون المخيم على الكون وبينما هما في مسيرهما إذ بهما يلحقان شبحين جالسين على سلم قريب، ولم يبتعد الشبحان عن بعضهما عند مرور فيليب وسالي بالقرب منهما. قالت سالي:

– ترى من يكونان.

– يبدو أنهما سعيدان معاً.

– لا شك أنهما ظنا أننا عاشقان مثلهما.

واستأنفا سيرهما صامتين، ثم قالت سالي بعد قليل

– انصت جيداً يا فيليب يمكننا أن نسمع صوت الأمواج من هنا.

وأطرقا منصتين، فخيل إليهما أن هناك أصواتاً خافتة بعيدة هي أصوات الأمواج المضطربة وهي تصطدم بالشاطئ، واقتربا من السلم الذي يجلس عليه العاشقان، كانا قد كفا عن همسهما وضم كل منهما الآخر إلى صدره وأخذا يتبادلان القبلات في صمت ولهفة. وقالت سالي

– يلوح أنهما في شغل شاغل عنا.

وكانا قد وصلا إلى المنحنى، وأحس كلاهما أن ثمة شيئاً ينتظر وقوعه، لم يعد هذا السكون الشامل شيئاً مملاً يهرب المرء منه بل أصبح مملوءً بالمعاني، وأحس فيليب أن قلبه يخفق بشدة.. أحس به وكأنه أوشك على

أن يذوب.. كان يتوقع حدوث شيء ما وكان يطمع في أن يحدث هذا الشيء بسرعة، وعجب فيليب لشدة تيقظ حواسه هذه الليلة، إن في استطاعته أن يشم رائحة الأرض.. رائحة الريف الجميلة، وأن يسمع أصواتاً لم يكن ليسمعها من قبل.. وتيقن أن روحه قد خلقت خلقاً جديداً. إن كل معاني الجمال التي تحيط به يراها للمرة الأولى جمال هذا الليل الساحر، جمال هذا السكون الذي يخشى أن تعكره سالي إن هي تكلمت، ولكنه كان يحن إلى صوتها العذب، صوتها الضعيف الذي يحاكي صوت الريف النائم، كان يحن لهذا الصوت الحنون..كانا قد وصلا إلى بيتها.. وتقدم فيليب وفتح لها الباب الخارجي قائلاً:

– أظن أننا سنفترق هنا، مساء الخير.

– شكراً لمرافقتي، لا شك أنني أتعبك.

وأعطته يدها فقال وهو ممسك بها:

– لماذا لا تقبليني قبلة المساء كباقي أفراد أسرتك؟.

قالها فيليب مازحاً لأنه ما أراد سوى تقبيلها فقد كان سعيداً بصحبتها، فقالت على الفور:

– إنني لا أمانع.

فابتسم فيليب وقربها منه وقال:

– مساء الخير إذن..

وأعطته شفتيها الدافئتين يقبلهما، كانا في نعومتها وامتلائهما يشبهان الزهرة المتفتحة، وأطال هو في قبلته لهذه الزهرة اليانعة ثم لم تلبث ذراعاه أن أحاطتا بها من غير تعمد وأسلمت هي نفسها له صامتة، والتصق صدرها بصدره فأحس بدقات قلبها، ودارت رأسه بشدة، إذ استولت عليه رغبة عنيفة فقد على أثرها سيطرته على نفسه.. شعر بأن تياراً شديداً يجرفه بسرعة شلت أمامها كل قوته ومقاومته فجذبها برفق ناحية السور حيث الظلام الدامس.

ولم يستطع أن ينفرد بها في اليوم التالي إلا في المساء، كانت تعد طعام العشاء فجلس بجوارها على النجيل.. كان فيليب متوتر الأعصاب مهتاجًا، يريد أن يتكلم ولكنه لم يكن ليعرف من أين يبدأ حديثه. وكانت سالي تقوم بإعداد الطعام في سكون ويقظة.. وعجز فيليب أن يحتمل هذا السكون المطبق فقال فجأة:

– سالي، أساخطة أنت علي؟

فرفعت عينيها إليه في هدوء ثم قالت بفتور:

– أنا؟ كلا. ولم أغضب منك.

وذهل فيليب لهذا الفتور.. وحركت سالي الطعام على النار ثم وضعت الغطاء على القدر ثانية ثم قالت وقد علت شفتيها ابتسامة مغرية:

– لقد أحببتك دائمًا، منذ أن عرفتك.

وقفز قلب فيليب بين ضلوعه وأحس بالدماء تندفع إلى وجنتيه وانطلقت من فمه ضحكة خافتة.

– ولكني لم أكن أعرف ذلك.

– هذا لأنك أحمق.

– لا أعرف لما أحببتني.

– وأنا كذلك لا أعرف

ووضعت حطبًا في النار ثم حركتها قليلاً ثم قالت:

– لقد أحببتك منذ أن حضرت إلينا لأول مرة جائعًا تطلب مأوى.

واحمر وجهه خجلاً.. لم يكن يعلم أنها ما زالت تذكر هذه الحادثة التي تبعث ذكراها في نفسه صورة ذلك الماضي المخيف. واستأنفت قائلة:

– وهذا هو السبب في أنني رفضت كل من جاء يطلب يدي. هل تذكر ذلك الشخص الذي رغبت أمي في أن تزوجني له؟ لقد كان يأتي بين الحين والحين لتناول الشاي ولكنه لم يلبث أن ناله اليأس بعد أن تحقق له أن لا فائدة ترجى من مجيئه.

ودهش فيليب، ولم يجد ما يقوله. لقد أحس بإحساس غريب يطرأ على قلبه ولم يكن يعرف ماهيته.. لا شك أنه إحساس بالسعادة. وحركت سالي محتويات القدر ثانية وقالت مستاءة من صمته الطويل:

- أرجو أن يسرع الأولاد في الحضور فالعشاء قد أعد.

تكلم فيليب أخيرًا قائلاً:

- هل أذهب للبحث عنهم؟

وتنفست سالي الصعداء عندما سمعت صوته وقالت:

- حسنًا هذه فكرة لا بأس بها ولكن يجب أن أقول.. آه ها هي والدتي قد حضرت.

ونهض فيليب واقفًا وقالت هي له:

- هل تصحبني للنزهة بعد أن ينام الأطفال؟

- نعم.

- حسنًا انتظرني عند السلم.. فسألحق بك.

وجلس ينتظرها بشوق عظيم وكانت النجوم تتلألأ في كبد السماء الصافية والجو معقمًا بتلك الرائحة الغريبة التي لم يكن يلحظها من قبل،

وراح قلبه يخفق بشدة. لم يكن ليستطيع أن يفهم شيئًا مما حدث.. ما الذي دفعها أن تحبه؟! وهل هذا هو الحب؟ كان يظن أن الحب عاطفة مملوءة بالدموع والزفرات وغريب ألا يحدث له شيء من هذا، ولكن هل تحبه سالي حقيقة؟ ولم تحبه؟ لو كان في رشاقة ابن عمها بيتر جان واعتداله وجمال وجهه لما وقع في هذه الحيرة ولكان حبها له شيئًا معقولاً. وعجب فيليب من أمرها: ماذا ترى فيه من الجمال؟ ما الذي يدفعها إلى حبه؟ ولكن شيئًا واحدًا كان يملأ قلب فيليب اطمئنانًا وهو ثقته في صفاء نفس سالي ونقائها. أحس أن ثمة أشياء كثيرة يجهلها هو قد اجتمعت وساعدته على أن يكتسب عطفها ومحبتها. أشياء لم تفطن إليها هي.. وإن فطن إليها قلبها.. هذا الليل الساكن أثمل قلبها الحنون فتحركت كل أنوثتها الكامنة في أعماقها وأحبته.. وأسلمت نفسها له.

وسمع وقع أقدام تقترب منه ولمحها مقبلة.. فهمس:

– سالي!

وتوقفت هي برهة ثم تقدمت إليه، فخيل إليه أن الجو قد امتلأ فجأة برائحة الحقول المسكرة. وأحس بشفتيها الممتلئتين تدفنان في شفتيه وبجسدها الفضي تحتضنه ذراعاه.

ثم قرب وجهها برفق وقبل جفنيها ومر بيده على ذراعها العاري وشرد فكر فيليب قليلاً ثم قال:

– بالله، لم أحببتني!؟ فلست إلا شخصًا كسيحًا مشوه الخلقة، لم أحببتني!

فأخذت وجهه بين يديها وقبلته في فمه قائلة:

– لست إلا شخصًا غبيًا.. (هذا أنت)

الختام

بينما كان فيليب يعد العدة للقيام برحلاته بعد أن أصبح طبيبًا ماهرًا إذ بسالي تأتي إليه مذعورة وتنمي إليه أنه ربما كانت حبلى.. كان واجبه يقضي بأن يتزوجها بسرعة وأن يطرح عنه فكرة السفر ويظل في "دورسيشتر" تلك القرية الصغيرة التي لا تحقق شيئًا من آماله العريضة. عقد عزمه على أن يسارع بزواجه من (سالي) وأن يظل طبيبًا قرويًا طول أيام حياته. (وستكون هدية العرس لزوجته تلك الآمال الضائعة) ولكن ها هي سالي تعود إليه لتخبره أن مخاوفها قد زالت. بعد أن تأكدت أنها ليست حبلى. وينشرح صدر فيليب لهذا الخبر ويطلب من سالي أن تكون زوجته. فتقبل. (وتشرق الشمس عليهما من جديد)

صور غرامية من الأدب الروسي

الأخوة كرامازوف

دستويفسكي

تقديم الكاتب:

فيودور ميخالوفيتش دستويفسكي هو أعظم كتاب القصة الروسية، ولد سنة ١٨٢١ ولما انتهت مدة خدمته في الجيش اشتغل بالأدب. ثم قبض عليه سنة ١٨٤٩ وحكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص بتهمة الحض على الثورة.. وقد كان هو وزملاؤه في ساحة الإعدام عندما جاءهم أمر العفو عنهم من عقوبة الإعدام فجأة من القيصر، فكان لهذه الصدمة أثرها الدائم على عقليته، نفي إلى سيبيريا وتزوج وهو في منفاه ولم يكن زواجًا سعيدًا ومضت خمس سنوات أطلق سراحه بعدها ولكن العفو العام لم يشمله إلا بعد عشرة أعوام.

اشترك مع أخيه "ميخائيل" في إصدار مجلة أدبية ولكنها لم تلبث أن صودرت من السلطات. وكان دستويفسكي متأثرًا بقصص الكاتب الإنجليزي الكبير تشارلز ديكنز، وقد أخذ يكتب قصصًا طويلة لفتت إليه نظر العالم لروعتها وإحكامها وكان يشتغل بالكتابة ليلاً ونهارًا لكي يوفي ديونه التي كثيراً ما كان يهرب من روسيا لعدم مقدرته على الوفاء بها.

وهناك طابع خاص يميز كتابات دستويفسكي هو طابع الغرابة: غرابة شخصياته وغرابة أسلوبه مع روعة إحكامهما، وكان لمؤلفاته أثر كبير على الأدب والفكر في العشرين سنة التي سبقت الثورة. وقصة الأخوة كرامازوف هي آخر قصصه نشرت لأول مرة قبل وفاته واحدة ١٨٨٠

ملخص القصة:

إن قصة "الأخوة كرامازوف" وصف دقيق لعائلة روسية ملأت حياتها كراهية تتأجج بالحب الكامن. أفراد هذه العائلة كالحشرات يسيئون إلى بعضهم وإلى جيرانهم ولكنهم كالشهداء يموتون في سبيل بعضهم البعض. وعلى رأس هذه الأسرة أب يدعى فيودور بافلوفتش هو مثال الضعة والانحلال وعدم الأمانة، هو رجل داهية لا ضمير له. وكان للأب فيودور ثلاثة أولاد.

فابنه الأكبر يدعى (ديمتري) كان ضابطًا في الجيش، ولكنه مدمن على الخمر، ويبلغ من احتقار ديمتري لأسرته أن يقول (نحن أسرة كرامازوف كحشرات يجب القضاء عليها)، وكان ابنه الأوسط إيفان فيلسوفًا وعالمًا في اللاهوت، بينما نرى الابن الأصغر المسمى إليوشا وهو فتى حديث السن، لم يرث شيئًا من ضعة أبيه وفساد أخلاق أخوته، فهو طيب القلب محب لفعل الخير، لا يهمه سوى أن يعمل على سعادة إخوته وفض نزاعهم الدائم. وكان للأب كرامازوف خادم يدعى سمردياكوف، هذا الخادم لم يكن سوى ابنه من امرأة مجنونة كانت له علاقة بها.

وتتعرف (كاتيا) على أسرة كرامازوف عن طريق ديمتري فيحدث أن يختلس والد (كاتيا) القائد الحربي أموال الكتيبة فيخف ديمتري لإنقاذه بأن يعطي كاتيا ٤٥٠٠ روبلا. ولم تجد كاتيا ما تكافئه به غير أن تهب نفسها له وتتزوجه ولم يمض وقت طويل حتى ورثت كاتيا أموالاً طائلة فسددت هديتها.. ثم يجيء يوم يكتشف فيه ديمتري أن أخاه إيفان يعشق زوجته التي لم يكن بينه وبينها أية عاطفة صادقة.لم يهتم ديمتري لذلك لأنه كان يحب امرأة أخرى تدعى جروشنكا، ويزداد حنقه على والده عندما يعلم أنه يريد أن ينتزعها منه لنفسه.

وأرادت كاتيا أن تمتحن إخلاص ديمتري لها فأعطته ثلاثة آلاف روبلا ليسلمها إلى صديقة لها، فأخذ ديمتري هذا المال وأنفقه على (جروشنكا) ولما علم ديمتري حقيقة الأمر جن جنونه لأنه سقط في عيني زوجته، واعتبر نفسه مجرمًا لتعديه على أموالها. فذهب إلى أبيه يطالبه بنصيبه من ميراث أمه.. فيرفض أبوه أن يعطيه شيئًا فتنشب معركة شديدة بين الأب وابنه..

وفجأة يقبض البوليس على ديمتري بينما كان يشرب الخمر في إحدى الحانات فقد عثر على والده مقتولاً نتيجة ضرب مبرح وإصابات في رأسه، ووجدت ثياب ديمتري مخضبة بالدماء. وينكر ديمتري في التحقيق أنه الجاني، وينكر أن له صلة بهذا المبلغ المفقود البالغ قدره ثلاثة آلاف روبلا التي كانت في حوزة والده قبل موته..

ويظهر إيفان أثناء التحقيق على حين غرة ومعه ثلاثة آلاف روبلا لكي يدلي بشهادته ويقول أن الخادم سمردياكوف قد اعترف بأنه الجاني وأنه قد انتحر على إثر اعترافه له بذلك.

وتتعقد القضية، لعدم الجزم بصحة إدعاء إيفان، ثم تنتاب إيفان حمى تجعله يهذي ويقول بأنه هو الذي كان يتمنى موت والده وأنه هو المجرم الحقيقي، وتبرح به الحمى فيذهبون به إلى (كاتيا) حيث تعتني به. وتزداد القضية تعقيدًا عندما تقدم كاتيا اعترافًا كتبه ديمتري يقول فيه أنه يعتزم قتل أبيه ولكن (إليوشا) الأخ الأصغر للأخوة كرامازوف يؤكد براءة أخيه ديمتري. وتنتهي القضية بالحكم على ديمتري بالإبعاد عشرين سنة في سيبيريا. إذ أن المحلفين لم يجدوا من يدينونه بالقتل والسرقة سواه. وفي مستشفى السجن يطلب ديمتري من أخيه إليوشا أن يساعده على الفرار عن طريق الرشوة التي كانت شائعة في ذلك الوقت.. بعد ذلك يمكنه أن يأخذ جروشنكا ويهرب معها إلى أمريكا، ثم يعود ثانيًا متقمصًا شخصية غير شخصيته لكي يكمل بقية حياته في موطن أجداده.. وها هو يجلس في مستشفى السجن منتظرًا مجيء كاتيا لتعطيه ما يحتاج إليه من المال..

ونظر إليوشا إلى أخيه وقال: "إنها أكدت لي أنها سوف تأتي ولكنني لست أدري إن كانت ستحضر اليوم.. لقد كانت صدمة عنيفة عليها.لم أعد أحتمل البقاء هنا يا إلهي أريد أن أرى كاتيا سريعًا إن عقلي سينفجر.. أريد كاتيا! أعرف ما سأفعله بعد أن أراها. إن جروشيكا دائمًا أمام عيني.. أريد الخروج من هنا فلن أقاسي أكثر من هذا"

وصرخ اليوشا: "ها هي قادمة".

وظهرت كاتيا عند الباب فجأة.. ووقفت جامدة تحدق في ديمتري بعض الوقت، ونهض هو واقفًا من تلقاء نفسه، كانت نظرات الخوف ترتسم على عينيه وكان وجهه شاحبًا وقد علت شفتيه ابتسامة ملؤها الأمل والرجاء وفتح ذراعيه بشوق وضمها إلى صدره. جلست على الفراش وأخذته بجوارها وراح كل منهما يحدق في صاحبه صامتًا. ثم قال ديمتري:

"هل نسيت إساءة حبيبك إليك يا كاتيا؟" ثم أدار وجهه إلى إليوشا مبتسمًا وقال في حدة "ألا تسمعين؟ ألا تسمعين يا كاتيا؟"..

"إن طيبة قلبك هذه هي التي جعلتني أحبك. أجل لن أستطيع أن أفعل غير هذا.. أن أصفح عنك.. أن أسامحك لأنني لو لم أصفح عنك فلن تقر لي عين ولن يندمل هذا الجرح الذي يدمي قلبي".. وتوقفت لحظة

كيما تلتقط أنفاسها. "أتعرف لما جئت الآن يا ديمتري؟ لكي أركع عند قدميك وأقبلهما لكي آخذ يديك بين راحتي وأضغط عليهما في شفقة وأعيد عليك ما كنت أقوله لك في موسكو: أنت إلهي.. فيك سعادتي.. فيك هنائي.. إنني أحبك بل وأعبدك". وتأوهت في حزن ثم أخذت يده وقبلتها في جنون، والدموع تتساقط من عينيها..

كان إليوشا يقف جامدًا كالمصعوق فلم يكن يتوقع حدوث شيء مما يقع الآن تحت نظره.

واستطردت قائلة: "لقد مات حبنا يا ديمتري! ولكن ذكراه ستبقى إلى الأبد. اعلم ذلك.. دعنا الآن نعيد هذه الذكرى الجميلة". ونظرت إليه في فرح ثم قالت: "إنك الآن تحب امرأة أخرى.. وأنا أحب رجلاً آخر ولكنني سأحبك إلى الأبد وستحبني أنت كذلك. هل تسمع يا ديمتري؟ هل تسمع ما أقول أريد أن أراك تحب كاتيا طول حياتك أحببني يا ديمتري ما دمت حيًا!" وراحت تصرخ بصوت مرتعد وتكرر قولها: "أحببني يا ديمتري ما دمت حيًا!"

أجاب ديمتري في كلمات متقطعة وهو يلهث: "نعم، سوف أحبك.. يا كاتيا سوف أحبك إلى الأبد.. أتذكرين يوم وقعت مغشيًا عليك؟ كنت أعلم أنني أحبك وأنني سأظل أحبك إلى الأبد.. نعم سوف أحبك إلى الأبد يا كاتيا".

وظل كلاهما يهذي بهذه الكلمات المثيرة بضع دقائق.. كلاهما يعلم أنه يهذي بكلمات جوفاء ولكن في هذه اللحظة الرهيبة أصبحت تلك الكلمات الجوفاء مملوءة بالمعاني وأصبح كلاهما يعتقد عن يقين أنه يقولها من أعماق نفسه.

وفجأة صاح ديمتري: "كاتيا. هل تعتقدين أنني قتلت والدي؟.. هل تعتقدين ذلك؟.. إنني واثق من أنك لا تصدقين شيئًا من هذا، ولكن في هذا اليوم الذي أدليت فيه بشهادتك ضدي.. لا شك أنك كنت لا تعتقدين أنني قتلت والدي.. لا شك في ذلك!"

"لم أكن أعتقد في شيء في هذا يا ديمتري.. نعم ولم أعتقد فيه يومًا ولكن في هذه اللحظة كنت أكرهك.. كنت أبغض رؤيتك، لذا فقد أقنعت نفسي بعض الوقت، ولكن حينما انتهيت من الكلام لم أكن أعتقد في شيء مما قلت. صدقني ألست ترى أنني أتيت اليوم لأكفر عن ذنوبي؟"

وخرج صوت من أعماق ديمتري يقول: "أيتها المرأة إن ذنوبك لا تمحى".

وهمست قائلة: "دعني أذهب الآن.. لن أستطيع البقاء.. سوف أعود إليك ثانية".

ونهضت من مكانها، وفجأة صرخت صرخة مدوية وتراجعت قليلاً، وتقدمت جروشنكا بهدوء وهي صامتة.. ولم يكن أحد يتوقع قدومها..

وتحركت كاتيا مسرعة ناحية الباب.. ووقفت أمام جروشنكا مصفرة الوجه وهمست: "اصفحي عني!"

وحملقت جروشنكا فيها.. ثم قالت في صوت حاد: "إنني أكرهك.. وأنت تكرهينني. كلانا ملء قلبه الكراهية للآخر! إن في وسعك إنقاذه.. فأنقذيه. عندئذ سوف أعبدك طول حياتي". وصرخ ديمتري يقول مؤنبًا: "ألا تغفرين لها؟!" وهمست كاتيا: "لا تنزعجي! سوف أنقذه لك!" وهرولت مسرعة إلى خارج الحجرة.

وقال ديمتري متعجبًا: "أتسألك الصفح بنفسها ولا تصفحين عنها!؟"

فأجاب إليوشا قائلاً: "لا تلمها يا ديمتري.. ليس لك الحق في هذا".

ثم قالت جروشنكا: "سوف أغفر لها كل ما بدا منها.. لو خفت لإنقاذك. إنها لم تكن تتكلم من أعماق نفسها.. لقد سألتني الصفح من شفتيها أما قلبها فلا يزال عامرًا بكراهيتي".

وتوقفت عن الكلام كمن يفكر في شيء..لم تكن تتوقع أو ترى شيئًا مما رأته..

وصاح ديمتري: "إليوشا.. الحق بها.. قل لها.. لست أدري.. اذهب ولا تدعها تخرج من هنا وهي على هذه الحال".

وخرج إليوشا مسرعًا وهو يقول: "سوف أعود في المساء". ولم يستطع اللحاق بكاتيا إلا عند باب المستشفى.. كانت تسير مسرعة ولكنها توقفت وقالت لإليوشا: "لن أكفر عن ذنوبي أمام هذه المرأة! لقد طلبت منها الصفح لأنني كنت أريد أن أقسو على نفسي إلى حد الموت.. ولكنها لم تصفح عني.. وإنني أشكرها على ذلك! (وأضافت في صوت مختنق وعيناها تلمعان) وإنني أشكرها على ذلك!" وتمتم إليوشا قائلاً: "لم يكن ديمتري يتوقع شيئًا من هذا، لم يكن يتوقع قدومها".

– نعم إنني واثقة من ذلك.. دعنا من هذا الآن.. أنصت إلي: إنني لا أستطيع أن آتي إلى الجنازة وأنا على هذه الحال.. سوف أرسل إليهم الورود وأظن أنهم ليسوا في حاجة إلى المال.. قل لهم أنني لن أتركهم.. والآن دعني أذهب. أرجوك أن تتركني. إنك قد تأخرت فعلاً، فها هي الأجراس تدق معلنة بدء القداس.. اتركني.. أرجوك!

الآباء والأبناء

إيفان ترجنيف

تقديم للكاتب:

يعتبر إيفان ترجنيف من أعظم كتاب القصة الروسية الذين عاشوا في القرن التاسع عشر. ويجد الغربيون في قراءة قصصه روعة لا يجدونها في غيره من الكتاب الروسيين؛ لذا فقد أطلقوا عليه اسم "الكاتب الروسي الغربي".. تزوج والده من امرأة ثرية، وكانت حياته سلسلة من الشقاء أدت إلى أن يهجر الولد بيته، وأن يحيا حياة بوهيمية بعيدًا عن والدته، ولم تلبث الأم أن غضبت على ابنها وحرمته من مالها. ولم تمهلها المنية لكي تنتقم من هذا الولد الثائر، فسرعان ما توفيت وتركت كل ما تملك سنة ١٨٥٠.

وبدأ حياته الأدبية بكتابة بعض القصائد ونشرها في مجلة أسبوعية. ثم جمعها في مجلد ونشرها سنة ١٨٥٢. ولكن لم يلبث إيفان ترجنيف أن هجر قرض الشعر وأخذ يكتب قصصه الخالدة.. وقد ظهرت قصة "الآباء والأبناء" لأول مرة سنة ١٨٦٢. وتدلنا هذه القصة على براعة الكاتب الفائقة في التفرقة بين آراء الجيل الجديد، ومعتقداته، وماهية حياته الفكرية، وبين ذلك الجيل الذي كان يعيش قبله.

وتعتبر شخصية بازاروف من أقوى الشخصيات التي صورها لنا إيفان ترجنيف في قصصه، هي شخصية ثائرة تريد أن تقلب نظام الحكومات، لكي يتمتع الفرد بكامل حريته وكرامته، ولكننا نرى معاصريه يرون فيها شخصًا هزليًا رسمه لنا ترجنيف لكي يضفي على قصصه شيئًا من الفكاهة. ولم يجد ترجنيف تشجيعًا كافيًا من أبناء وطنه، فسافر إلى فرنسا. وهناك وجد كثيرًا من المعجبين به، أمثال موباسان وفلوبير. وفي سنة ١٨٨٠ عاد إيفان ترجنيف إلى روسيا، وهناك قوبل بالإعجاب والترحيب، فقد بدأ الشعب الروسي يشعر بعظمة هذا الكاتب النافع ويقدره حق قدره.. توفي سنة ١٨٨٣ في فرنسا

ملخص القصة:

سافر أركادي كيرسانوف بعد أن أتم دراسته الجامعية إلى بلد ماركينوه حيث يعيش الأب نيكولاي مع عشيقته فينتشكا وبصحبته صديقه القديم بازاروف، وهو طبيب مثقف، تشبعت روحه منذ الصغر بالآراء الثورية على كل ما هو قديم متوارث. وكان العم بافل يكره بازاروف ويضمر له الشر في قلبه لأنه، وهو الرجل المسن المحافظ المتمسك بالتقاليد والعادات القديمة، لم ترقه أخلاق بازاروف وخروجه على تلك العادات المتوارثة، التي هي في ناظره قوام هذا المجتمع.. وأقدس ما في هذا الوجود.. وكان العم بافل يسخر من بازاروف ويقول "ذاك رجل ساقط يعيش كالحيوان.. لا يهمه في هذا العالم سوى شيء واحد: الضفادع" وكان يقصد بذلك أن يضحك من ولع بازاروف ونبوغه في علم التشريح.

وهناك شخصية أخرى تعترض سير الحوادث هي شخصية أنا أودينتستوف وهي أرملة صغيرة السن واسعة الثراء يتعرف عليها أركادي وبازاروف وعلى أختها الصغرى كاتيا. ويعجب بازاروف بأنا، وتهيم هي بحبه، غير أنها تخفي حقيقة شعورها نحوه وتتظاهر بحبها لأركادي. وكان أركادي من ناحية أخرى معجبًا بكاتيا، يريد أن يطلعها على حقيقة أمره. ولكنه كان يخشى أن تقابل عاطفته المتأججة بفتور.

ويقدم لنا الكاتب شخصيتين أخريين امتلأ قلباهما حنانًا على ولدهما، هما شخصية والد بازاروف ووالدته. ثم يعود بنا الكاتب ثانية إلى بلدة ماكينو وهناك يبلغ من استهتار بازاروف واحتقاره للمبادئ والمعايير الأخلاقية الموضوعة أن حاول تقبيل فينتشكا عشيقة نيكولاي.. ويحدث أن يقع نظر العم بافل على ذلك المنظر، فيهب لمبارزة بازاروف ليثأر لشرف أخيه.. وتسفر المعركة عن جرح خطير في صدر العم بافل، ويسرع بازاروف بإسعافه وإنقاذه من موت محقق.. ثم يسافر الصديقان ثانية إلى عاصمة المقاطعة وينزلان ضيوفًا على أنا وأختها كاتيا وهنا يصارح أركادي كاتيا بحبه وعزمه الصادق على أن يقترن بها..

المشهد الغرامي:

وجلست كاتيا في مكانها المعهود من المخدع وإلى جانبها جلس "أركادي"، كانت ساعة الغداء لم تحن بعد وكان الجو حارًا، وراحت كاتيا تفكر فيما قالته لها أختها هذا الصباح.. لقد استدعتها أنا في غرفتها عقب تناولها الشاي وأخذت تلاطفها بعض الوقت بأحاديثها التي طالما فزعت منها كاتيا، ثم صارحتها بخوفها الشديد من أركادي، ونصحتها بأن تتخذ الحيطة معه، وأن تتجنب مقابلته على انفراد خوفًا على سمعتها وشرفها، وتذكرت كاتيا كيف ساءت معاملة أختها لها في اليوم السابق وكيف أحست بأن ثمة شيئًا غريبًا ينتظر وقوعه، ومهما يكن، فقد صممت على أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تستمع فيها إلى أركادي.

وباغتها أركادي بقوله (عزيزتي كاتيا.. لقد حادثتك في موضوعات كثيرة منذ مجيئي، ولقد نعمت بإقامتي هنا بفضل صحبتك لي.. إلا أن هناك سؤالاً يهمني أريد أن أطرحه على مسامعك.. سؤالاً يخصني.. ويهمني أن أعرف جوابك عليه.. كاتيا.. منذ وصولي إلى هنا أمس وأنا أحس بشيء غريب لم أشعر به من قبل).. ونظرت إليه كاتيا في دهشة فتلاقى نظرهما وقال مستأنفًا حديثه: "أحسست بما غيرني كلية.. ولا شك أنك تعرفين ذلك؛ فأنت مبعث هذا التغير الذي طرأ علي". وقالت كاتيا "أنا؟.. أنا؟.."

فاستأنف أركادي قائلاً: (إنني لم أعد ذلك الشاب الخجول المتكبر الذي رأيته عندما جئت لأول مرة إلى هنا.. لقد بلغت سن الثالثة والعشرين، وأريد أن أعمل شيئًا مجيدًا.. أن أحقق مثلاً عليا طالما حلمت بها، ولكنني لن أبحث عن مثلي العليا بعد اليوم لأنني عثرت عليها، وها هي بالقرب مني.. حتى الآن لم أكن أفهم نفسي.. لقد كنت أضع نصب عيني آمالاً واسعة كدت أشك في أن تحققها الأيام، ولكن ها قد تفتحت عيناي أخيرًا وتحققت آمالي، وإذا ما سألت نفسي عن مبعث هذا كله، عرفت أن الفضل يرجع إلى شيء واحد، إلى شعور غريب، إنني لا أستطيع أن أعبر عن خاطري في صراحة تامة، ولكنني آمل أن تفهمي ما أعني)

ولم تحر كاتيا جوابًا بل راحت تنظر بعيدًا عنه. ثم قال أركادي بصوت مضطرب

(إنني أظن.. أظن أنه من الواجب على كل مخلوق أن يصارح هؤلاء.. هؤلاء الذين.. الذين يثق بهم.. وهكذا عولت على أن..)

انقطع حبل تفكيره، وخانته بلاغته فكف عن الكلام، وظل يتلعثم بعض الوقت، ولم تحرك كاتيا ساكنًا، ولم تنظر إليه طيلة هذه المدة، بل ظلت مطرقة إلى الأرض، تنتظر أن تقف على معنى هذا الحديث الغامض. وتشجع أركادي، وجمع ما تبقى من قوته. ثم قال:

(أظن أنك ستدهشين جدًا عندما تعلمين أن لهذا الشعور الغريب الذي طرأ علي.. صلة.. صلة مباشرة بك).

ثم تردد قليلاً وراح يفكر في يأس، راجيًا أن تساعده كاتيا على بلوغ ما يرمي إليه، ولكنها لم ترفع رأسها، بل ظلت مطرقة تفكر في سكون. واستأنف حديثه قائلاً:

(إنني أتمنى من صميم فؤادي..

ولكنه لم يتمم كلامه فقد سمع فجأة صوت آنا تقول: "أريد أن أتأكد أولاً مما تقول"

وجمد أركادي في مكانه واصفر لون كاتيا، كانت أنا تسير برفقة بازاروف في الممر الذي يحجبه عن المعبد سور من الأشجار. ولم يكن في استطاعة كاتيا أو أركادي أن ترياهما ولكنهما سمعا حديثهما بجلاء. كانا على مسيرة بضع خطوات منهما ثم توقفا وكأنهما قد تعمدا الوقوف بالقرب منهما. وقالت أنا:

"كلانا أخطأ في ذلك يا بازاروف.. أنت تعلم أننا قد تخطينا عهد الشباب.. وعلى الأخص أنا.. لقد تمتعنا بما فيه الكفاية من هذه الحياة وكدنا نملها. أجل، كلانا قد ملها؛ فلا تحاول إنكار ذلك. لقد أعجب كل منا الآخر في أول الأمر، ثم لم يلبث أن تحول هذا الإعجاب إلى اهتمام.. ثم.."

فقاطعها بازاروف قائلاً (ثم تحولت أنا فجأة إلى شيء تافه يدعو إلى السأم)

– لا.. ليس لهذا دخل في انفصالنا، ومهما يكن السبب فأنت تعلم أنه لا مناص من الفراق، وهذا هو المهم أن أحدنا لم يعد محتاجًا إلى صاحبه، والسبب في ذلك بسيط: أننا سوف نفترق على أية حال.. والآن أعلم أن أركادي..

وقاطعها ثانيًا (هل تريدينه؟)

(اصمت.. اصمت يا بازاروف.. إنني أعتقد عن يقين أنه معجب بي.. وأنت تعرف ذلك. إنني أعلم أنه غير لائق بأرملة مثلي أن تفكر في شيء من هذا، ولكنني لا أريد أن أخفي عليك شيئًا.. لقد كانت صورته في مخيلتي هذه الأيام الأخيرة، وإنني أعجب بشبابه الغض وتسحرني عاطفته الملتهبة)

فقال بازاروف في صوت جهوري ملؤه الغضب

(إن كلمة السحر كثيرًا ما تستعمل في هذه المواقف.. إن أركادي كان يتحدث معي أمس ولم يذكر في حديثه شيئًا عنك أو عن كاتيا، وهذا يدعو إلى القلق)

(إنه ليس إلا أخًا لكاتيا، وشعوره نحوها لا يعدو أن يكون شعور الأخ نحو أخته ، وإنني مسرورة لذلك ولو أنه كان يجب علي أن أعمل على إبعاده عنها منذ البداية)

وقال بازاروف ساخرًا

(لا شك أن واجبك كأخت كبيرة يدفعك إلى هذا.. أليس كذلك؟)

(طبعًا.. هيا بنا الآن.. يا له من حديث غريب أنت تعرف أنني أصبحت أخشاك وكان يجب ألا أتحدث إليك هكذا، ولكنني على أية حال ما زلت أثق بك، فأنت شخص لطيف...)

(أريد أن أخبرك أولاً أنني لست لطيفًا، ثم كيف تقولين أني لم أعد بذي أهمية عندك ومع ذلك تدعين أنني لطيف إنك كمن يضع باقة من الورد على جثة ميت..)

فأجابت أنا: (بازاروف.. إننا لسنا مسئولين....)

وهبت ريح قوية حملت كلماتها بعيدًا.. ثم سمع صوت بازاروف يقول:

"إنك حرة يا آنا.. فافعلي ما يحلو لك"

واختفى صوته كذلك، ولم يعد يسمع وقع أقدامهما، وساد سكون عميق.

والتفت أركادي إلى كاتيا.. كانت تجلس كما هي، ولكنها كانت مطرقة إلى الأرض وكأنها تسبح في عالم آخر، وقال أركادي في صوت يتهدج بعد أن ضم يديه إلى بعضهما بشدة

(كاترينا.. إنني أحبك وسأحبك إلى الأبد ولن أحب سواك.. كنت أريد أن أصارحك بذلك لكي أعرف رأيك ولأتقدم طالبًا يدك.. أنت تعرفين أنني مستعد لأن أضحي بكل شيء من أجلك.. أجيبيني؟ كاتيا.. ألا تصدقين ما أقول؟ هل تظنين أنني لست جادًا؟ لا بد أنك كنت تشعرين بأنني أحبك من صميم فؤادي.. انظري إلي يا كاتيا.. أجيبي ولو بكلمة واحدة.. إنني أحبك.. صدقيني)

ورمقته كاتيا بنظرة فاحصة ثم قالت بعد تردد طويل وقد افترت شفتاها عن ابتسامة ضعيفة: (نعم).

وقفز أركادي واقفًا: (نعم! كاتيا هل قلت نعم! ولكن ماذا تعنين؟ أتعنين أنني أحبك فقط وأنك تصدقين هذا.. أو أنك .. أنك .. إنني لا أجرؤ على إتمام هذه الجملة!!)

وصاحت: (نعم).. قالتها في صوت غريب جعله يفهم ما ترمي إليه، فجذب يديها الجميلتين وضمهما إلى صدره في جنون وراح يتنفس في صعوبة وهو يهمس "كاتيا.. كاتيا.."

وأخذت تبكي من شدة الفرح ثم راحت تبتسم لبكائها.. نعم إن المرء لا يستطيع أن يحس بالسعادة الكاملة الحقيقية إلا إذا وقف في مثل هذا الموقف الرهيب ليرى الدموع تنهمر من مقلتي أحب الناس إليه..

وفي صباح اليوم التالي، أرسلت أنا في استدعاء بازاروف، ثم قدمت إليه ورقة مطوية وهي تضحك في ذهول .. لقد أرسل إليها أركادي يطلب زواجه من أختها الصغيرة!

وطوى بازاروف الرسالة بعد أن قرأها، وبذل جهدًا كبيرًا لكي يخفي ذلك الاغتباط الذي طرأ على نفسه فجأة. ثم قال: (هذا عظيم.. لقد كنت تقولين أمس أن علاقة أركادي بكاتيا لا تزيد عن كونها محبة أخوية.. ما الذي ستفعلينه الآن؟)

فأجابته آنا ضاحكة: "ماذا ترى أنت؟"

"إنني، إنني أظن أنه من الواجب عليك أن تهنئ العروسين الجديدين. لا شك أنه سيكون زواجًا مباركًا. كما أنك تعلمين أن أركادي هو الابن الوحيد لوالده، وسيغتبط أبوه بهذا الزواج".

قال هذا، وأغرق في الضحك، لم يكن يضحك عن فرح أو سرور، ولكنه كان يشعر برغبة شديدة في الضحك ليخفي حنقه وغيظه. وراحت أنا تذرع الغرفة ذهابًا وجيئة. تارة تبتسم وأخرى تمتقع ويصفر لونها وأخذت تقول: "هذا رأيك! حسنًا.. إنني لا أرى مانعًا من زواجهما.. إنني سعيدة من أجل كاتيا، ومن أجل أركادي كذلك.. لا شك أنني سأنتظر حتى أعلم رأي أبيه في الموضوع.. ولكن يخيل إلي أنني كنت محقة أمس عندما أخبرتك بأننا لم نعد في سن الشباب.. بأننا قد هرمنا.. إذ كيف لم ألاحظ شيئًا البتة!؟ هذا ما يحيرني فعلاً!" وأغرقت في الضحك من جديد.

فأجاب بازاروف ضاحكًا "إن الجيل الجديد قد أصبح جيلاً ماكرًا"

وتوقف هنيهة ثم قال "وداعًا يا أنا، وأرجو من الله أن تسير الأمور في مجاريها حتى النهاية.. وسوف أكون سعيدًا عندما يتم هذا الزواج"

والتفتت أنا نحوه بسرعة: "بازاروف.. إنك لست ذاهبًا! لم يعد هناك حاجة لأن تتركني الآن.. الآن.. لم لا تمكث بجواري؟ لا ترحل بل ابق هنا.. فإن حديثك يثيرني.. يخيل إلي أنني أسير على حافة أخدود عميق يخيفني السقوط فيه أول الأمر، ولكنني سوف أعتاد ذلك بعد قليل، وسوف أتشجع وأستأنف مسيري في اطمئنان.. لا ترحل عني يا بازاروف!"

"شكرًا على ذلك يا آنا، وشكرًا على رأيك في وفي جمال أحاديثي. ولكنني أظن أنني كنت أسير في جو خانق لا يناسبني. وأنت تعرفين أن هناك نوعًا من السمك يقفز في الهواء أحيانًا، ولكنه لا يلبث أن يغطس ثانية في الماء لأنه لا يستطيع أن يعيش بدونه، ولأنه يختنق في الهواء بعيدًا عن وسطه"

والتفتت أنا إلى بازاروف.. كان يبتسم ابتسامة مرة، وقالت أنا في نفسها: "إن هذا الرجل يحترق حبًا لي!" وأحست بالعطف نحوه، ومدت ذراعيها إليه في إشفاق وقد بدت عليها علامات العطف، ولكنه فهم ما دار بخلدها؛ فتراجع إلى الخلف وهو يقول: "لا يا أنا.. إنني رجل فقير ولكنني لم أقبل حتى الآن إحسانًا من مخلوق أيًا كان.. أرجو لك حظًا سعيدًا.. وداعًا يا أنا"

وقالت أنا وهي في شبه ذهول: "أريد أن أراك ثانية يا بازاروف، لن يكون هذا فراق الأبد"

"لا يعلم ذلك إلا الله.." قال هذا وانحنى محييًا أنا ثم اختفى عن ناظريها.

ختام القصة:

ويعود بازاروف إلى والديه، ويعقد قران أركادي على كاتيا والأب نيقولاي على فينتشكا. كان قرانًا مزدوجًا سعيدًا، ولكن لم يحضره بازاروف. وفي إحدى العمليات الجراحية بينما كان بازاروف يشرح جثة أحد الفلاحين، وكان مريضًا بالتيفوس، جرح أصبعه فانتقلت إليه العدوى ومات بازاروف بين يدي أنا التي جاءت لتراه وهو مريض وظلت ملازمة فراشه حتى انتهى. ويختتم إيفان ترجنيف قصته بمنظر الأب وزوجته وهما يصليان على مقبرة ابنهما الشهيد.

آنا كارنينا

تولستوي

تقديم للكاتب

ولد ليون نيكولوفتش تولستوي سنة ١٨٢٨ من عائلة نبيلة. مات والده وهو لم يزل طفلاً، ولما بلغ سن الثالثة والعشرين التحق بالخدمة العسكرية، ثم نشر كتابه الأول ليسدد ديونه التي تراكمت عليه بسبب ولعه بالقمار. وقد كان وصفه لحصار سباستبول سنة ١٨٥٤ رائعًا، لفت نظر الجميع إليه، وحاز تولستوي منذ ذلك الوقت منزلة أدبية كبيرة بين طبقات المجتمع المختلفة. تزوج وهو في سن الثامنة والعشرين .. ولم يكن زواجًا سعيدًا.

وفي سنة ١٨٧٢ ابتدأ في كتابه "آنا كارنينا" ثم أخذ ينشرها مسلسلة بين سنتي ١٨٧٥ و ١٨٧٧، وقد ترجم الكتاب سريعًا إلى اللغة الألمانية ثم إلى الفرنسية والإنجليزية ولاقى نجاحًا عظيمًا؛ فهو لا شك تحفة فنية رائعة، وقصة آنا كارنينا هي المؤلف السادس لتولستوي، وهي أروع ما كتبه هذا الكاتب الإنساني العظيم.

وكان تولستوي ثائرًا على الكنيسة ونظام الحكم والمجتمع وعلى المناصرين للحروب، وقد ظهر أثر ذلك في كتاباته مما أدى إلى تعرض

الرقابة له والوقوف في سبيله، غير أنه كان قد وجد كثيرًا من المعجبين في جميع أنحاء الأرض، فلم يكن من السهل أن تحجز الرقابة على كتبه.

توفي تولستوي سنة ١٩١٠ ودفن في مقابر أجداده التي أصبحت منذ ذلك الحين كعبة يحج إليها الناس ليحيوا ذكرى ذلك الكاتب العظيم، فقيد الإنسانية.

ملخص القصة

يحكي المؤلف في مبدأ هذه القصة متاعب البرنس ستيفن أوبلنسكي العائلية (كلمة "برنس" في روسيا لم تكن مقصورة على العائلة المالكة). هو رجل متزوج، إلا أن زوجته قد هجرته نتيجة ما قام بينهما من خصام ونزاع بسبب غراميات أوبلنسكي.

"آنا كارنينا" هي أخت أوبلنسكي الكبرى وزوجة إحدى الشخصيات البارزة في المجتمع الروسي: أليكسي ألكسندروفيتش. ولأوبلنسكي أخت ثانية ناتالي، وهي متزوجة كذلك من لفوف، أما الأخت الثالثة وهي الصغرى فلا تزال عذراء! وقد تقدم لخطبتها اثنان من النبلاء هما كوستانتين ليفين، وأليكسي فرونسكي بطل هذه القصة وهو شاب في ريعان شبابه مشرق الوجه طويل القامة، عريض الكتفين.

وكان فرونسكي أحد أصدقاء البرنس أوبلنسكي المقربين، وتتعرف آنا بهذا الشاب النبيل عندما يصطحبه أخوها لانتظارها في المحطة وكان

لظهور فرونسكي وشخصيته أثر كبير على آنا، جعلها تنسى زوجها وتتعلق بشخصية هذا الشاب الذي يمتاز بجاذبيته وعلو أخلاقه وقوة شخصيته وكان زوجها رجلاً كريمًا محبًا لدينه ذا مثل عليا يتعلق بها إلا أنه لم تكن له تلك الجاذبية وذلك التأثير الذي يتمتع به فرونسكي. وكم كانت آنا تمله وتكرهه حينما يحدثها عن أخيها وعن غرامياته. كان لا ينقطع عن التعرض لأوبلنسكي بالسب والانتقاد، الأمر الذي جعل آنا تكره سماع أحاديثه.

ومنذ ذلك اليوم الذي قابلت آنا فيه فرونسكي وهي تعمل على أن تقابله باستمرار في المجتمعات وتتحدث إليه فازداد إعجابه، وكانت آنا على شيء عظيم من الجمال فإذا بفرونسكي يجد نفسه يحبها.. ولم يعد للناس حديث غير موضوع هذا الحب.. تلك المرأة المتزوجة وهذا الشاب المستهتر.. ولم يطق زوج آنا صبرًا على هذه الحال؛ فذهب إلى امرأته يومًا وحذرها لكي تتخذ الحيطة في معاملتها لفرونسكي حتى لا تذهب بسمعتها وشرفها. وهنا تجتمع آنا بفرونسكي في إحدى المجتمعات الراقية.

المشهد الغرامي

وقالت بتسي "ولكني أعتقد أن المرء في طريقه إلى الحب لا بد أن يقع في أخطاء عديدة، والواجب عليه أن يصلح ما يبدر منه"

فسألتها زوجة السفير مازحة: "أممكن أن يحدث نفس الشيء حتى بعد الزواج؟" فقال الملحق السياسي مرددًا مثلاً إنجليزيًا "الفرصة سانحة دائمًا لكي يصلح المرء أخطاءه"

فأجابت بتسي "هذا صحيح.. لا بد أولاً من الوقوع في الأخطاء.." والتفتت إلى آنا وقالت "أليس كذلك؟" فافتر ثغر آنا عن ابتسامة رفيعة ملؤها الثقة والاعتداد وأجابت في هدوء:

"ليست عقول الرجال متشابهة، وبالتالي قلوبهم، وبالتالي حبهم؛ فالحب ليس واحدًا في جميع الحالات"

وكان فرونسكي يحدق في آنا متشوقًا لسماع كلامها العذب بقلب واجف، وتنهد من أعماقه وكأنه قد نجا من موت محقق عند سماعه هذه الكلمات التي فاهت بها أخيرًا.

والتفتت آنا إليه فجأة وقالت:

"ألا تعلم يا فرونسكي؟ لقد وصلني خطاب من موسكو يقول بأن كيتي مريضة جدًا".

فأجاب فرونسكي وهو عاقد حاجبيه: "أحقًا؟"

فنظرت آنا ثم قالت: (ألا يهمك ذلك؟).

(بالعكس إن ذلك يهمني جدًا.. ماذا انتهى إليك بالدقة؟)

(لقد كنت أريد أن أخبرك دائمًا أن الرجال أجهل ما يكونون بمعنى الشرف، ومهما تحدثوا فهم عاجزون عن التفرقة بين ما هو شريف وما هو غير شريف)

لقد تجاهلت آنا الإجابة على سؤاله وراحت تحدثه هكذا، بعد أن قادته إلى مائدة بعيدة في ركن الصالة. فقال وهو يقدم إليها الشاي: (ماذا تعنين؟).

وأومأت إلى الكرسي الذي بجوارها فجلس على الفور. وقالت وهي تنظر بعيدًا عنه (كنت أريد أن أقول لك هذا من مدة، لقد كان سلوكك يدعو إلى الخجل..)

(أتظنين أنني أجهل ذلك؟ ولكن من كان سببًا في هذا؟)

وحدقت فيه بشدة ثم قالت "ولم تسألني أنا؟"

(أنت تعرفين السبب جيدًا.) قال ذلك ورمقها بنظراته القوية فتقابلت أعينهما؛ فاضطربت ثم قالت (إن قلبك ميت يا فرونسكي.) ولكن عينيها كانتا تنطقان بعكس ما تقول.. كانت تعلم أن له قلبًا كبيرًا، ولولا ذلك لما أحبته. وأجابها قائلاً

(لقد كنت تتكلمين عن غلطة اقترفتها، وليس لحديثك عن الحب مبرر هنا)

(تذكر دائمًا أنني حرمت عليك أن تنطق بتلك الكلمة المشئومة أمامي)

ولكنها سرعان ما أحست أنها بقولها (حرمت عليك ذلك) قد أخطأت، لأنها بهذا القول تثبت أن لها بعض الحقوق عليه، وأنها بذلك تشجعه على أن يتكلم كيفما يحلو له عن الحب. واستأنفت حديثها قائلة:

(كنت أريد أن أخبرك بذلك من مدة. ولقد جئت هذا المساء من أجل ذلك. لا بد أن تعلم أنه يجب أن نضع حدًا لما بيننا من الآن. لم يحدث لي أن شعرت بالخزي من قبل، ولم أكن في يوم ما فريسة لتأنيب الضمير قبل اليوم).

واحمر وجهها وتوردت وجنتاها عندما قابلت نظراته. ونظر هو إليها فخيل إليه أن وجهها قد ازداد جمالاً فوق جماله.. جمالاً إلهيًا لم يعهده فيها من قبل. وقال في بساطة

(وماذا تريدين أن أفعل؟)

(اذهب إلى موسكو واطلب الصفح من كيتي)

(لا شك أنك تمزحين..)

كان يعلم أنها مجبرة على هذا القول، ولم تكن تقصده.

وهمست: (لو كنت تحبني كما تقول فافعل ذلك من أجلي)

فأشرق وجهه عن ابتسامة وهمس:

(ألا تعلمين أنك حياتي يا آنا؟ ألا تعلمين أنني لا أستطيع فراقك.. إنني عاجز عن أن أهبك شيئًا من السلام والطمأنينة.. شيئًا من السعادة بوجودي معك، غير أنني لا أستطيع فراقك.. لا أستطيع. لا شيء أمامنا غير الحزن واليأس والدموع.. ليتني أستطيع إسعادك يا آنا.. آه ليتني أستطيع)

وحاولت آنا أن تجيب.. كانت تريد أن تقول شيئًا يعزي نفس حبيبها الحزينة، ولكنها لم تستطع، بل راحت تنظر إليه بعينين تنطقان بالحب والإخلاص، ولم تجب بشيء..

وأخذ هو يفكر ويقول في نفسه (ها قد ملكتها أخيرًا.. عندما أوشكت على اليأس.. ها قد ملكتها.. ولكن ما الذي سأفعله الآن؟ إنها تحبني! فماذا أنا فاعل؟ إنها تحبني يا إلهي!)

قالت (أرجوك ألا تقول شيئًا من هذا أمامي مرة أخرى. سوف نكون صديقين إلى الأبد.. ودعك من كلمة الحب، فليس لها مجال بيننا) كانت تنطق بهذه الكلمات بلسانها، أما نظرتها فكانت تعني عكس ذلك.

"صديقان! لا، أنت تعلمين أن هذا محال، ولكنني أرى أن شقاءنا بين يديك، لأنه يمكنك أن تجعلي منا أسعد الناس كافة، أو أشقاهم كافة"

وكانت تريد أن تقول شيئًا ولكنه لم يمهلها:

(لا أطلب منك أكثر من أن تمني علي بشيء من الأمل.. أن تتركيني أقاسي ما أنا فيه من عذاب، وإلا فإن كنت لا ترغبين في رؤية وجهي، فمريني لكي أختفي بعيدًا عنك، وحينئذ سوف أختفي إلى الأبد.)

(لا أريد ذلك يا فرونسكي، أنت تعلم أنني أحبك)

(إذًا فاتركي الأمور كما هي ولا تحاولي أن تغيري شيئًا. انظري ها قد حضر زوجك)

وفي اللحظة دخل أليكسي ألكسندروفيتش، ونظر إلى زوجته وإلى فرونسكي، ثم ذهب إلى مضيفته وراح يشرب الشاي في هدوء ويتحدث إلى من حوله في رزانة تامة. كان يسيطر على أعصابه بالرغم من رؤيته زوجته وعشيقتها في آخر الصالة.

ومضى بعض الوقت وهو لا يزال جالسا يتحدث في شتى الموضوعات مع من حوله.

ولم تعر آنا زوجها أي انتباه بل تجاهلت وجوده واستمرت في حديثها مع فرونسكي.

وهمست إحدى السيدات (هذا غير لائق بزوجة مثلها) ونظرت إلى آنا وفرونسكي ثم إلى زوجها. فأجابتها سيدة أخرى وكانت صديقة آنا (ألم أقل ذلك؟)

وراح جميع المدعوين ينظرون ناحية آنا وعشيقها في استياء واستنكار ولكن رجلاً واحدًا لم يفعل ذلك هو زوجها أليكسي ألكسندروفيتش فقد راح يتحدث في اهتمام غير عابئ بما يدور حوله.

ولاحظت بتسي علامات الاستياء التي بدأت تظهر على وجوه المدعوين فانسحبت خلسة من جوار أليكسي ألكسندروفيتش وذهبت إلى آنا وقالت لشد ما يسحرني حديث زوجك يا آنا. إن أفكاره وآراءه لا يستطيع المرء أن يسمعها من أحد غيره. هلمي معي لتشاركينا هذا الحديث.

ولم تفهم آنا حرفًا واحدًا مما قالته بتسي بل قالت وهي تبتسم (نعم!) ونهضت من مكانها ولحقت ببقية المدعوين.

وبعد نصف ساعة قام أليكسي أليكسندروفيتش وخاطب زوجته قائلاً (لقد حان موعد رحلينا) ولكنها أجابته بأنها سوف تمكث حتى العشاء، فانحنى أليكسندروفيتش وغادر المكان وحيدًا.

ولما فرغوا من العشاء وتأهبت آنا للرحيل اصطحبها فرونسكي إلى عربتها، وسمعته آنا وهو يهمس في أذنها (إنك تعلمين أن الصداقة لا تكفي يا آنا.. الصداقة بيننا ليست كل ما أتمناه.. إن سعادتنا تتمثل في تلك الكلمة التي طالما فزعت لمجرد سماعها.. تلك الكلمة التي تكرهين النطق بها.. نعم كلمة الحب!.. وقالت في صوت خافت ينبعث من أعماقها (الحب.. نعم إنني أكره هذه الكلمة لأنها تحوي معاني عظيمة.. تعجز أنت

عن فهمها.. إنما كل شيء عندي) وحدقت في وجهه هنيهة ثم قالت (إلى اللقاء!)

ومدت إليه يدها.. ثم قفزت بسرعة داخل عربتها واختفت عن ناظريه.

ووقف وحيدًا مذهولاً، وأوقدت نظرتها الحالمة ملمس يدها الناعمة نار الحب في قلبه.. فقبل الموضع الذي لمسته من يده وقفل راجعًا إلى بيته والفرح يملأ قلبه لأنه أمضى ليلة سعيدة بجوار حبيبته، ليلة طالما تمناها منذ شهور عديدة.

وجاء يوم تحقق فيه ذلك الحلم السعيد الذي طالما رآه فرونسكي ذلك الحلم الذي لم يكن يتمنى سواه، ولم يكن يطمع في شيء غيره. ذلك الحلم الذي كانت تراه آنا مستحيلاً ومخيفًا ولكنه في نفس الوقت حلمًا كان جميلاً بل هو أجمل ما في هذا الوجود.

ووقف أمامها شاحب الوجه مرتاعًا، كان يريد أن يهون عليها ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلاً. وقال في صوت مختنق (آنا! آنا! ارحمي نفسك يا آنا..)

ولكنها لم تنصت إليه بل راحت تدفن رأسها بين يديه وهي تبكي وتئن ولم تلبث أن فقدت توازنها وسقطت عن الفراش عند قدميه، فأخذها

هو بين يديه، فصاحت وهي تبكي (يا إلهي! ارحمني! واصفح عني يا فرونسكي)

لقد شعرت بعظيم إثمها وهول خطيئتها فطلبت الصفح منه لأنه لم يعد في حياتها رجل سواه.. توجهت بصلاة الغفران إلى هذا الرجل الغريب عنها – فرونسكي – وحقرت من نفسها وأنزلت بها إلى الحضيض لأنها لم تملك إلا أن تنزل بها ونظرت إليه ولم ينبس ببنت شفة. وشعر هو بأنه قد أجرم في حق هذه المرأة، بأنه قد سلبها حياتها، هذه الجريمة لم تكن سوى نتيجة حبهما.. أول نتائج هذا الحب التعس.. ماذا جلب عليهما حبهما غير الشقاء والتعاسة والعار؟.. ونظر كلاً منهما إلى صاحبه فوجده عاريًا..

لقد فارقهما هذا الرداء الروحاني الذي كانا يتمنطقان به فذعر فرونسكي كما يذعر القاتل عندما يقع نظره على ضحيته ولكن لم يلبث أن انهال عليها ليقطعها إربًا رغبة منه في أن يشفي غليله منها.

وهجم القاتل في جنون على جثة ضحيته، وأخذته نشوة العاطفة فانهال على وجهها يقبله في شغف. وانتزعت هي يده من يديها وقالت "نعم.. تلك القبل هي سبب ذلك العار وهي الباعث لتلك الجريمة، وهذه اليد ستظل مشتركة في هذه الجريمة إلى الأبد" ورفعت يده إلى شفتيها وقبلتها قبلة طويلة فركع على ركبتيه أمامها وحاول رؤية وجهها ولكنها حرصت على إخفائه.. ولم تقل شيئًا.. وأخيرًا جمعت ما تبقى من قوتها ونهضت واقفة بعد أن دفعته عنها.. وقالت في يأس

"لقد انتهى كل شيء، ولم يعد لي في الدنيا سواك.. تذكر دائمًا ذلك يا فرونسكي"

"اطمئني يا آنا فلن أستطيع أن أنسى حياتي وسعادتي كلها"

فقاطعته وقالت في فزع "سعادة! سعادة!؟ أرجوك ألا تنطق بكلمة أخرى.. اصمت!"

ونهضت بسرعة وذهبت بعيدًا عنه وهي تردد قولها: "لا تنطق بكلمة أخرى"، ونظرت إليه في يأس ورحلت بعيدًا عنه.. لقد أحست بعجزها عن أن تعبر عن ذلك العار الذي لحق بها وذلك الرعب الذي تملكها منذ أن بدت تلك الحياة.. ولم تكن تريد أن تشوه هذا الإحساس وذلك الشعور الذي ملك عليها روحها بكلمات ينطق بها لسانها الدنس.. ومضى يوم ثم يومان ومضت ثلاثة أيام دون أن تستطيع أن تجد لهذا الشعور كلمات تعبر عن ماهيته.. وفي الحقيقة لقد عجزت أن تجد أفكارًا تكشف عما يجول في أعماق نفسها المعذبة.

وقالت في نفسها: "لن أفكر في شيء من هذا الآن، سوف أفسر ذلك فيما بعد عندما تطمئن نفسي قليلاً."

ولكن مضت الأيام تباعًا دون أن يأتي ذلك اليوم الذي تنتظره، ولم يحدث أن نعمت لحظة واحدة بذلك الهدوء الروحاني وتلك الطمأنينة التي تنشدها.. كانت لا تنقطع لحظة واحدة عن التفكير فيما اقترفت من إثم

وفيما ينتظرها من عقاب وفيما يجب عليها فعله، وأصبحت حياتها سلسلة من الفزع والمخاوف، وظلت تنتظر ذلك اليوم الذي تهدأ فيه نفسها لتفكر في مأساة حياتها.. ظلت تنتظر وتقول في نفسها (فيما بعد.. فيما بعد عندما تهدأ نفسي الثائرة..)

هكذا كانت تحاول الهرب من تلك الأفكار التي ظلت تطاردها.. تلك الأفكار التي أحالت حياتها إلى جحيم أبدي، ولكنها لم تهرب نهائيًا من وجه هذا الشبح المخيف فقد جاءها في نومها في شكل بشع.. كانت تحلم كل ليلة أن زوجها وفرونسكي عشيقها يضاجعانها في وقت واحد وأن كلاهما يلاطفانها ويتحببان إليها.. كانت تسمع زوجها أليكسي أليكسندروفيتش يقول "ما أسعدنا الآن يا آنا!" وكان فرونسكي يضاجعها في نفس الوقت، وكانت هي تعجب من أمرهما ولكنها كانت تهون على نفسها وتقول ضاحكة لم أكن أتصور أن يتحقق ذلك الأمل الذي طالما تمنيته، ولكن الأمر كما يبدو لي الآن بسيطًا ولا داعي للحزن طالما أرى زوجي وعشيقي سعيدين بهذا الوضع. ولكن هذا الحلم كان كابوسًا ثقيلاً عليها وكانت تفزع كل ليلة من نومها على أثره.

ختام القصة:

وتهجر آنا زوجها، ويمتنع هو عن طلاقها، وإن كان من الداعين للطلاق والمناصرين له، ويجئ يوم يزهد فيه فرونسكي عشيقته آنا فلا تملك إلا أن تلقي بنفسها تحت عجلات القطار..

صور غرامية من الأدب الأمريكي

سوف أبصق على قبوركم

فرنون سيلفان

تقديم للكاتب:

فرنون سيلفيان كاتب أمريكي من أولئك البيض المنحدرين من سلالة زنجية، يعيش بين إخوانه الزنوج المضطهدين في أمريكا التي تقول عنها شعوب العالم أنها بلد الحرية والمساواة، ولقد لمس فرنون سيلفان بنفسه اضطهاد البيض المستوطنين للشعب الزنجي الأمريكي، وأراد أن يطلع العالم على هذا الظلم الذي يلحق بهذا الشعب الضعيف فأخرج لنا هذه القصة الخيالية "سوف أبصق على قبوركم" وهي والحق مثال تحفة فنية رائعة تعبر بصدق عما يكمن في أعماق هؤلاء القوم من حقد وكراهية لمضطهديهم البيض. ولقد كان من نتيجة احتقار البيض للزنوج واضطهادهم لهم أن قام بعض المصلحين محاولين الحد من تلك الكراهية التي لا تتفق ومبادئ العدالة والأخلاق. وكان (أبراهام لنكولن) أول من جاهد في القرن التاسع عشر لإزالة هذا الاضطهاد العنصري.

ولكن هل نجح هؤلاء المبشرين في إزالة هذا الاضطهاد وتلك الكراهية؟ هل هناك مساواة فعلية بين البيض والزنوج؟.. الواقع أن هذه المساواة لم تتحقق بعد، فما زال زنوج أمريكا يئنون لما يلاقونه من ظلم وإجحاف ولا يزال البيض يعتبرونهم عبيدًا لهم.

ملخص القصة:

(لي أندرسون) بطل هذه القصة شاب يمت إلى تلك الفئة من الزنوج الذين انتهى أمرهم بعد طول الاختلاط إلى الابيضاض التام يعيش مع أحد أصدقاء أخيه (توم الذي قتله البيض لأنه أحب إحدى فتياتهم، ومنذ ذلك اليوم الذي قتل فيه أخيه برصاص البيض صمم لي أندرسون أن يثأر لدم أخيه الشاب الذي راح ضحية التعصب العنصري.. ولقد كانت طريقته في الأخذ بهذا الثأر محفوفة بالأخطار فكان عليه أولاً أن يخفي أصله الزنجي وأن يرحل عن بلده إلى بلد آخر لا يعرفه فيها أحد.. وكان لي أندرسون يجيد الغناء والعزف على القيثارة؛ فهجر بلدته وقصد (بوكتون) حيث تعرف هناك على بعض الفتيات الغنيات، وذلك بفضل صوته العذب وموهبته في الموسيقى. ولم يمر وقت طويل حتى أصبح (دون جوان) هذه البلدة فتقربت إليه ابنتا المليونير المعروف (اسكويث) وكانت أكبرهما تدعى (جان) وهي فتاة في العشرين من عمرها شقراء الشعر ساحرة الوجه ثائرة الأنوثة، وكانت أختها الصغرى تسمى (لو) وكانت تفوق جان جاذبية وجمالاً..

وكانت الخطة التي وضعها لي أندرسون لكي ينتقم لأخيه خاصة وللشعب الزنجي على وجه العموم تقوم على شيئين مهمين هما إيقاع الفتيات البيضاوات في حبه والعدوان على عفافهن ثم قتلهن رميًا بالرصاص. ولم يبذل (لي أندرسون) عناءً كبيرًا في إيقاع هاتين الحسناوتين في حبه، فلم يمضي وقت طويل حتى أسلمت الكبرى نفسها له، وتمنعت

الصغرى في بادئ الأمر ثم دعته من تلقاء نفسها أن ينال منها ما يشتهي لأن الغيرة كانت قد دبت في قلبها وأفسدت عليها هناءها.

المشهد الغرامي:

وفي الساعة الثانية صباحًا انتهت سهرتنا وانسل كل منا إلى مخدعه وخلعت ثيابي وارتميت على الفراش أخطب ود النوم ولكن انقضت ساعة دون أن يغمض لي جفن، ولم أنقطع لحظة واحدة عن التفكير في (جان) و(لو).. وتسللت من فراشي قاصدًا مخدع (لو) وطرقت بابها... ففتحت على الفور، فاقتحمت الغرفة وأغلقت الباب خلفي.. كانت لو ترتدي قميص نومها الحريري الأبيض الذي يشف عن تقاطيع جسدها البض، وكانت تبدو في هذه الثياب الشفافة أكثر إغراءً وفتنة من ذي قبل.. قلت:

– جئت أسألك المعذرة يا (لو)

– اخرج من هنا يا لي أندرسون

– ألا تحبين وجودي معك.. إذن فلم فتحت لي؟.

– لم أكن أعرف أنك أنت الطارق.. ظننتك الخادم، ولكن خبرني ما الذي جاء بك إلى هنا؟

– جئت من أجل هذا..

وأخذتها بين ذراعي في وحشية وانتزعت منها قبلة طويلة حادة تنضح بالشهوة، وإذا بصفعة منها تنهال على وجهي في قسوة. فابتعدت عنها في هدوء. وقالت: يا لك من حيوان..

– لا تصرخي يا لو لئلا تسمعك أختك جان!

– لن تسمع جان شيئًا لأن الحمام يفصل بين حجرتينا.

– هذا عظيم!

وأعدت الكرة، ففتحت قميصها ولكنها راحت تدافع عن نفسها دفاع المستميت وتكيل لي الضربات بقبضتيها، فقبضت على ذراعيها بشدة واستأنفت هجومي ولكنها أخذت تصد هجماتي بساقيها.. وكان التعب قد أخذ مني مأخذًا كبيرًا فتركتها وابتعدت عنها وأنا أقول:

– يا لي من أحمق.. لقد أجهدت نفسي من أجل شيء تافه لا يستحق كل هذا العناء.

ولمعت الدموع في عينيها لفرط ما لحق بها من الإهانة، وأحست بوقع تلك الكلمات الساخرة فاصفر لونها ورفعت رأسها إلى الخلف لتمنع سقوط تلك الدموع التي كادت تنهمر من مقلتيها. واتجهت صوب الباب وأنا أقول لها ساخرًا:

– نومًا هادئًا يا لو.. وإني أعتذر لك عما بدر مني.

ولم تجب.. بل عضت شفتيها في حنق وغيظ، ثم أولتني ظهرها فجأة، ووقفت برهة أتأمل هذا القد الجميل الذي لم أنعم به، ولكنني أسرعت خارجًا.. واتجهت من فوري إلى حجرة جان وعالجت فتح الباب، ولم تكن جان قد أغلقته بالمفتاح مما جعلني أوقن أنها كانت تتوقع قدومي..

كانت غرفة جان مضاءة بمصباح صغير، وكانت تنام في فراشها عارية لا يستر جسدها شيء ولكنها سرعان ما تحركت وأدارت وجهها نحوي، وقالت:

– يا لك من جسور مستهتر!

وضحكت ضحكة عالية.. فقلت مداعبًا إياها:

– لا يا جان.. إنني حينما أرقد بجوارك أحس بقوتي تنهار وأصبح كالحمل الوديع.

ولم تنبس ببنت شفة بل ضمتني إلى جسدها في وحشية وراحت تقبلني، وفجأة رأيتها تقفز بعيدًا عني وتصيح:

– لقد كنت مع (لو) هذه الليلة.. يا لك من أحمق.. إن رائحة عطرها تفوح من جسدك.

فاضطربت بعض الوقت ولكني سرعان ما اهتديت إلى ما أدافع به عن نفسي وقلت:

– كوني عاقلة يا جان.. ما الذي يجعلك تظنين هذا؟

– إن رائحة عطرها تفوح منك.

فقلت كمن تدارك سر الأمر.

– آه تذكرت.. لقد أبديت إعجابي برائحة عطرها، فأهدتني نقطتين منه.

وتوقفت هنيهة عن الكلام ثم استأنفت قائلاً:

– هل اقتنعت بأنني لم أذهب إلى مخدعها يا جان؟

– طبعًا يا حبيبي؟

وهمست بعد أن اقتربت مني واحتوتني بين ذراعيها:

– خذني بين أحضانك يا لي.

لقد نسيت أن أطفئ النور .. دعيني أذهب لأطفئه.

فقالت في حدة:

– لا.. دع النور وشانه.. وخذني على الفور فقد أوشكت على الموت.

وضممتها إلي في شدة وشرعت أقبلها في عنقها وأتحسس ما تحت أذنها وسرعان ما رأيت أثر ذلك في قسمات وجهها وسمعتها تقول صائحة:

– لا يا لي لا تفعل ذلك بي.

وأبعدت يدي على الفور ولكنها لم تلبث أن قالت وهي في شبه حلم:

– أعد ما كنت تفعله يا لي.. أعده من جديد.

فلبيت رغبتها وظللنا على هذا الحال حتى بلغنا القمة ولبثنا متعانقين حتى ظهرت تباشير الصباح.. عندئذ قمت من جوارها وتسللت إلى غرفتي.

وفي الليلة التالية قصدت إلى مخدعي مبكرًا ولشد ما كانت دهشتي عندما رأيت لو تنام في فراشي وقد ارتدت غلالة زرقاء تشف عن كنوز جسمها، كنت واثقًا من احتقاري لها في الليلة السابقة سوف يجعلها تلحق بي.. ولكنني لم أكن أتصور حدوث شيء من هذا بمثل هذه السرعة.. وسرعان ما عادت إلى رباطة جأشي فأغلقت الباب بالمفتاح. وسمعتها تقول فجأة: لماذا لم تذهب إلى جان هذه الليلة كما في الليلة البارحة؟ قلت: أقسم لك أنني لم أذهب إليها إلا مكرهًا يا لو.. وإن شئت الحقيقة فاعلمي أنني لا أحب جان وأود أن أقطع صلتي بها منذ الآن.. لأنني ؟ أعبدك أنت يا لو.. نعم إنني أعبدك وحدك وأريد أن أراك دائمًا بجانبي.

– ولكني لا أصدقك.. لأنك غازلت جان قبلي.. وتوددت إليها ونعمت بها دون أن تعيرني شيئًا من انتباهك.

– ثقي أنني كنت مكرهًا على فعل ذلك، كما أن الخمر قد زينت لي كل ما كانت تعافه نفسي.. ولا يخفى عليك حالة المرء إذا ما كان ثملاً..

– هل ندمت إذن على مغازلتك لها يا لي؟

– إنني لم أندم في حياتي إلا على شيء واحد يا حبيبتي لو هو أنني لا أستطيع أن أكتسب حبك أو أن أحظى ولو بقبلة منك.

فقالت على الفور: "يمكنك أن تحقق هذه الأمنية الآن يا لي".

– أستغفر الله.. لن يسمح لي ضميري أن أمسك بك قبل أن...

وتوقفت لحظة ثم قلت:

– إن قبلة من فم جان ليست بذات قيمة عندي يا حبيبتي لو.. لذا فلم أتردد لحظة واحدة في تقبيلها طالما أرادت هي ذلك.. أما أنت يا لو فقبلة منك سوف تقتلني. لن أستطيع ذلك.. لا.. لن أستطيع قبل أن...

ولم أتمم عبارتي بل تظاهرت بالخوف، والاضطراب. وقالت هي مستفسرة:

– قبل ماذا..؟ تكلم يا لي ولا تخش شيئًا.

ثم وضعت يدها على ذراعي كمن تريد أن تطمئنني.

– ولكن ألا يبدو أن هذه غباوة مني؟ إن ذلك مستحيل.

– تكلم.. ماذا تقصد؟.

– أريد أن أقول.. أنني لن أمد إليك يدًا قبل أن تصبحي زوجتي يا حبيبتي لو.. ولكنني أخشى عليك من جان فأنت تعلمين أنها قد أكرهتني على أن أعدها بزواجي منها، ولست أدري ماذا أفعل الآن.

– هل أنت جاد يا لي؟

– نعم يا حبيبتي.. إن هذه هي أمنيتي الوحيدة.. أقسم لك.

انقضت برهة قصيرة ونحن صامتان ثم سمعتها تقول: لي..

ووثب قلبي بين ضلوعي وأحسست بسرعة خفقانه، ثم أدرت وجهي نحوها فرأيتها مستلقية على الفراش وقد أسندت رأسها بساعديها وأغمضت عيناها، وما أن وقع نظري على نهديها المشرئبين حتى كدت أفقد سيطرتي على نفسي، ولكني لم أحرك ساكنًا بل رحت أقول:

– لن أستطيع الزواج منكما معًا، ولكني أستطيع أن أجد حلاً للمسألة.. سأتزوج من جان.. وتقيمين أنت معنا. عند ذلك نجد متسعًا من الوقت لكي نطفئ ظمأ حبنا. أليس كذلك يا حبيبتي لو؟

فتمتمت في صوت مرتعش:

– دعك الآن من حديث جان.. ألا ترى أنني في حالة يرثى لها؟

ورحت أغازلها وأمر بأناملي على جسدها المرتعش، وبدأت أسمع دقات قلبها، وراحت تتنفس في صعوبة وتقول: "خذني الآن يا لي.. خذني بين ذراعيك القويين" فأسرعت أضمها في عنف وأقبل نهديها وأمر بيدي على محاسن جسمها الدافئ حتى راحت في غيبوبة عميقة.

قلت بعد هنيئة: "لا يا لو لن أستطيع أم أمد إليك يدًا قبل أن تصبحي زوجتي أمام الله والناس" فكان جوابها الوحيد قبلة طويلة طبعتها على صدري العاري وانحناءة من رأسها تدل على خضوع تام لمشيئتي وكأنها تقول: "افعل ما شئت بي الآن لأنني قد أصبحت عبدتك."

ختام القصة

وادعى "لي أندرسون" أنه مكره على زواجه من جان وأخبر أختها بأنها سوف تصحبه في سيارته للذهاب إلى (بركسفيل) حيث تنتظره جان هناك لقضاء شهر العسل، ولكن حدث أن علمت "لو" في اللحظة الأخيرة أنه (زنجي وضيع) وذلك عن طريق أحد أصدقائه البيض: ديكستر. وفي طريقهما إلى(بركسفيل) حاولت "لو" قتل لي أندرسون برصاصة أطلقتها من مسدسها أصابت يده، ولكن (لي أندرسون) أسرع فشد وثاقها بحبل كان يحتفظ به لهذا الغرض وأطلق عليها النار من مسدسها، ثم

اغتصبها والدم يسيل من جسدها العاري. وذهب إلى بريسكفيل وهناك، قابل "جان" وكرر ثأره المفترس، وانتقم على هذا النحو المروع لأخيه الذي حرم من الحياة لأنه أحب فتاة شقراء.

وتنتهي القصة بأن يتعقب البوليس المجرم الزنجي "لي أندرسون" ويطلق عليه النار، فيصاب برصاصتين في صدره، ويموت على الأثر. ويعرف الفلاحون في تلك المنطقة بأمر (لي أندرسون) فيعقلون جثته في الطريق لكي يصبح أمثولة وعبرة.

عنبر إلى الأبد

كاتلين ونسور

تقديم للكاتبة:

تعتبر كاتلين ونسور من أعظم كتاب القصة في العصر الحديث، منذ أن ظهر كتابها الأول (عنبر إلى الأبد)، ولقد ذاعت شهرتها وعرفت بين الأوساط الأدبية بموهبتها الكتابية على أثر كتابتها هذه القصة. أتمت كاتلين ونسور دراستها الجامعية سنة ١٩٣٨ وتزوجت من زميل لها وهي لم تزل طالبة.. ولعل من الطريف أن نذكر أنه لم يخطر ببالها قط أن تكتب قصة طويلة مثل (عنبر إلى الأبد) فقد حدث أنها كانت تطالع إحدى الكتب التي تتناول تاريخ عودة الملك شارل الثاني إلى عرشه سنة ١٦٦٠.. فأعجبت بذلك العصر الزاهي وراحت تتعمق في دراسته والوقوف على أسرار البلاط.. وأخرجت لنا تلك التحفة النادرة التي ستخلد ذكراها بين كتاب القصة على مر السنين.

ملخص القصة:

عنبر، فتاة قروية ساذجة ماتت والدتها وتركتها وحيدة فلم يكن أحد يعلم عن والدها شيئًا، وأرادت عنبر أن تشق طريقها في الحياة، وأن تصارع هذا القدر الذي يريد أن يصرعها. كانت فاتنة الوجه، ساحرة القد، وهبها الله جاذبية وجمالاً قلما يتوافران لفتاة في سنها، والتقت باللورد كارلتون

وهو ضابط بحري في حاشية الملك شارل الثاني لأول مرة في حانة القرية، فلم تدع هذه الفرصة تلفت منها فسرعان ما استهواها منظره فأعجبت به وصممت على أن يكون لها، ولم تدعه يرحل إلى لندن دون أن يصطحبها، وظلت أجنحة السعادة ترفرف على هذين الحبيبين، إلى أن جاء يوم وجد "بروس" نفسه مضطرًا لأنه يترك عشيقته لأن عمله كقبطان يتطلب منه ذلك، وودعها والدموع تنهمر من عينيها، بعد أن ترك لها خمسمائة جنيها لكي تنفق على نفسها وعلى جنينها الذي أحست به يتحرك في أحشائها.

ولم تمض مدة طويلة على رحيل "بروس" حتى تقدم أحد الرجال إلى عنبر طالبًا يدها، ولم تجد عنبر ما تفعله لكي تنقذ نفسها من هذا اليأس الذي بدأ يدب في نفسها، إلا أن تقبل زواجها من هذا الرجل الذي لا تشعر نحوه بأية عاطفة.. ولم يلبث هذا الزوج العزيز أن اكتشف سر تلك المرأة التي خدعه جمالها، وتحقق من خديعتها له، فثار جنونه وهجم عليها يركلها ويضربها ضربًا مبرحًا، ثم استولى على الخمسمائة جنيه التي كانت كل ثروتها وولى هاربًا عنها.

وتراكمت الديون الباهظة على تلك المرأة التعسة، ولم تلبث عنبر أن وجدت نفسها في أحد سجون إنجلترا المخيفة، وهالها أن تطوي صفحات حياتها وتموت في هذا السجن الرهيب، ووجدت الفرصة الوحيدة للهرب منه فلم تتردد، وألقى القدر في طريقها برجل فظ هو بلاك جاك الذي طالما ارتعدت من مجرد رؤيته من شباك السجن، وكان في استطاعته إطلاق سراحها على أن تتعهد له بأن تعاشره معاشرة الأزواج، وأن تطيع أوامره

طاعة عمياء.. وخرجت عنبر، واحتواها هذا الوحش بين ذراعيه وشرع يستعين بها لقضاء مآربه، وهكذا شاء القدر أن يجعل من عنبر سارقة ماهرة وقاطعة طريق في عصابة بلاك جاك.. ولكنها لم تلبث أن هربت إلى لندن، وهناك اشتغلت بالتمثيل وسرعان ما أعجب بها الكابتن مورجان وهجر عشيقته وتزوج من ساحرته عنبر.. وفي مساء ليلة العرس بينما كان العروسان يجرعان كؤوس الخمر، عثر على جثة عشيقة الكابتن مورجان طافية على سطح الماء فكانت عنبر سببًا في انتحار هذه الفتاة البائسة.

وعاد الكابتن مورجان ليلة ليجد زوجته بين أحضان رجل غريب، كان بروس قد عاد فجأة إلى لندن وجد في البحث عن عنبر حتى عثر عليها.. ودعا الكابتن مورجان غريمه للمبارزة دفاعًا عن شرفه، وأسفرت المعركة عن قتل الكابتن مورجان، فراح ضحية هذه المرأة التي داست على شرفه وكرامته.

ولم تطل إقامة بروس، بل سرعان ما عاد إلى سفينته وتركها وحيدة، وحدث أن قابلت عنبر شيخًا هرمًا ذا ثروة واسعة فقد كان من أكبر تجار الماس في إنجلترا، وقبلت زواجه منها، ولم يلبث أن توفي تاركًا لها ثروة لا ينضب معينها. ولم تعد عنبر في حاجة إلى شيء سوى أن تعطى لقب دوقة فقد كانت عريضة الثراء وكانت في حاجة إلى الجاه لكي تحقق مآربها..

ولم يمض وقت طويل على موت زوجها الأخير حتى تزوجت من الإيرل أدموند راد كليف.. وكان عجوزًا، غير أنها وجدت الوسيلة الوحيدة

لكي تتصل برجال القصر.. وجاء يوم عرفها الملك شارل الثاني فأعجب بجمالها ودعاها إلى قصره الخلوي.. وتكررت مثل هذه الزيارات وعلم زوجها العجوز بأن هذه المرأة تعبث بشرفه، واكتشف علاقتها مع ابنه الذي أوقعته في حبها، فجن جنونه ودس السم لابنه في الطعام فغضبت عنبر وأخذت سوطًا ظلت تهوي به على جسد زوجها حتى فارق الحياة..

وأراد الملك أن يخفي فضيحة كانت موشكة على الوقوع.. لقد اكتشفت عنبر أنها حبلى.. فأمرها الملك بأن تقبل شابًا طيبًا يدعى جيرالد تتزوجه لكي تتجنب الفضيحة وتزوجت عنبر للمرة الخامسة وهي لم تزل في سن الثالثة والعشرين.

وفي إحدى الليالي بينما كانت عائدة من القصر، قابلها صديق بروس، وكان يدعى مسبوري، وأخبرها بأن معبودها قد عاد إليها..

المشهد الغرامي

وقال مسبوري مبتسمًا:

– إن لدي مفاجأة لك.. يا عنبر.. هل تستطيعين التكهن بها؟

فأجابت في غير اهتمام:

– وكيف يمكنني ذلك؟

وصعد بها إلى الطابق الثالث، وهناك لمحت في البهو رجلاً طويل القامة، أسود الشعر يبتسم لها.. وحبست عنبر أنفاسها، وانطلقت من أعماقها صيحة: بروس! ولم تستطع السيطرة على أعصابها، وفقدت توازنها، ثم سقطت مغشيًا عليها..

وفي صباح اليوم التالي، استيقظت عنبر من تلقاء نفسها ومدت يدها باحثة عن بروس في أنحاء الفراش ثم صاحت في ذعر.

– بروس! بروس!

فظهر بروس من خلف الستائر مرتاعًا.. وكان قد انتهى من حلاقة ذقنه وقال:

– ماذا حدث يا حبيبتي؟

– شكرًا لله يا بروس، كنت أظن أنه لم يكن سوى حلم وأنك لم تعد حقيقة، ولكني كنت واهمة.. ها أنذا أراك أمامي يا بروس أليس كذلك؟.. وأجد نفسي في قمة السعادة بوجودك يا حبيبي!

ومدت ذراعيها نحوه وهي تبتسم ابتسامة عذبة وقالت:

– تعال بين ذراعي يا حبيبي.

وجلس هو بجوارها، وراحت تمر بأناملها على وجهه في رقة، كانت لا تزال في شك من أمر وجوده معها، وهمست: "ما أجملك يا بروس".. وأخذت تمر بيديها على جسمه العاري. وراحت تتحسس تلك العضلات القوية التي تسترها هذه البشرة الدافئة، وفجأة وقع نظرها على وجهه فرأته يحدق فيها باشتياق:

– عنبر

– بروس!

وتقابلت شفتاهما في شغف وجنون، وراحت تئن أنينًا خافتًا مكتومًا، ثم ارتمت عليه وأسلمت نفسها له، فانحنى عليها بجسده وأرقدها على الفراش، واجتاحتهما عاصفة الرغبة إلى نعيم هذه الحياة، وأخيرًا بعد أن انطفأت نار جسديهما المستعرة، رقد هو في سكون تام وقد أسند رأسه على نهديها.. وراحت تعبث بأصابعها خلال شعره الأسود في استرخاء. ومضى وقت طويل، وراح الوقت يمر سراعًا، ثم نهض واقفًا مبتعدًا، فتأوهت عنبر وابتسمت في نعاس:

– عد إلي يا حبيبي.. كم أريدك أن تكون بين أحضاني إلى الأبد.

فمال عليها وقبل شفتيها وهو يقول:

– لقد تأخرت يا عنبر، فيا ليتني أستطيع.. إن مسبوري ينتظرني.

– وماذا يهمك منه؟.. دعه ينتظر.

فهز رأسه وقال:

– لا أستطيع يا عنبر.. إنني ذاهب لمقابلة الملك وربما رأيتك في القصر هذه الليلة.

وتوقفت هنيهة ثم استأنف حديثه وهو يبتسم لها:

– لقد علمت أنك قد أصبحت دوقة وأنك قد تزوجت ثانية.

ونظرت عنبر إليه في استغراب وراحت تقول:

– تزوجت ثانية!؟ نعم.. يا إلهي لقد كدت أنسى ذلك.. مسكين أنت يا جيرالد.. لقد كدت أنسى أنني زوجتك!

ودهش بروس لما سمع وقال ساخرًا:

– يخيل إلي انك قد نسيت اسم زوجك يا عنبر، فقد أخبرني مسبوري أنه يدعى ستناهوب.. وأظن أن هذا هو اسمه الحقيقي، أما زوجك السابق فقد كان يدعى...

وقاطعته في حدة:

– لا تسخر مني يا بروس، لم أكن لأتزوج شخصا حقيرا.. إنني لا أعلم ما الذي دفعني على الاقتران به أو بسواه! لم أكن أتمنى غيرك يا بروس. لقد كان في استطاعتنا أن نحيا حياة هانئة سعيدة لو أنك..

ولمحت عيناها أثر هذا الحديث في قسمات وجهه، ولاحظت التغير الذي طرأ عليه فجأة، والذي أحست على أثره بأن ثمة شيئًا مجهولاً يحذرها من الاسترسال في كلامها، وحملقت فيه هنيهة ثم قالت:

"بروس. هل تزوجت يا بروس؟"

وهزت رأسها في لهفة وانتظار فرأته يجذب أنفاسه في صعوبة ويقول متنهدًا:

"نعم لقد تزوجت يا عنبر".

وكادت تسقط مغشيًا عليها.. لقد كان زواج بروس من امرأة غيرها هو الكابوس المخيف الذي ظل يطاردها طيلة هذه السنين السبع. والآن وقد تحقق لم يعد لها حول ولا قوة، لم تعد قادرة على أن تفعل شيئًا يرضي ثورة نفسها، وراحت ترمق بروس وهي صامتة، وجلس على المقعد وشرع يربط حذاءه.. ولكنه لم يلبث أن التفت إليها وقال:

– إنني آسف يا عنبر!

– ولم تأسف؟ ألأنك تزوجت؟

– لا.. لأنني آلمتك.

– متى تزوجت يا بروس؟ كنت أظن..

– في العام الماضي. في شهر فبراير.. عندما كنت في جمايكا.

– إذن لقد كنت تعرف أنك سوف تتزوج عندما غادرتني؟ يا لك من

فقاطعها في حدة وقال:

– لا يا عنبر.. لقد قابلتها يوم وصولي إلى جاميكا، وتزوجنا بعد ذلك بشهر.

وهمست عنبر في ذهول

– بعد ذلك بشهر؟.

وصرخت من أعماقها ثم راحت تبكي وتنتحب:

– لا يا عزيزتي.. لم يخطر ببالي أن أخدعك حتى الآن، ولقد أخبرتك منذ البدء أنه سيجيء يوم أتزوج فيه، وعندئذ سنضطر إلى أن نفترق.

وصرخت في تحد:

– ولكن ليس بهذه السرعة! ليس بهذه السرعة يا بروس.

وفجأة أمسكت عن البكاء ونظرت إليه في حقد وقالت:

– ومن تكون تلك الأفعى؟..

وقاطعها بروس قائلاً:

– إنها إنجليزية، وأبوها من كبار الملاك، وقد هاجر بعد الحرب إلى جاميكا، حيث اشتغل بزراعة قصب السكر.

ونهض بروس واقفًا وأخذ يرتدي ملابسه، وقالت عنبر:

– أظن أنها غنية. أليس كذلك؟

– نعم

– وجميلة أيضًا.

– أعتقد ذلك.

وتوقفت برهة ريثما تلتقط أنفاسها وقالت:

– وهل تحبها؟

ونظر إليها في استغراب، وانقضت لحظة دون أن يجيب على سؤالها ثم قال في هدوء:

– نعم.. إنني أحبها.

وتناولت عنبر ثوبها، وارتدته على عجل، ثم قفزت من الفراش وهي تصيح:

– لعنة الله عليك يا بروس كارلتون إنك أول رجل يتزوج عن حب في المملكة البريطانية بأجمعها

ولكنها لم تلبث أن فقدت السيطرة على نفسها فالتفتت إليه وصرخت، في وجهه:

– لشد ما أمقتها! لشد ما أحتقرها.. أين هي؟

فقال في هدوء:

– إنها في جمايكا.

– لا شك أنها مجنونة بحبك يا بروس؟

ونظر إليها في إشفاق ثم قال:

– يجب أن أذهب الآن يا عنبر.

ورمقته بعينيها لحظة ثم استدارت على عجل وولته ظهرها، وكأنها تنتظر منه أن يركع عند قدميها ويسألها الصفح والمغفرة. ولكنه لم يفعل، بل

اتجه صوب الباب متأهبًا لمغادرة الحجرة، وفي الحال انطلقت من أعماق عنبر صيحة جعلته يقف في مكانه:

– بروس. لن ترحل عني يا بروس. إنني لا أهتم بمسألة زواجك. لن أتركك ترحل مهما كانت الظروف. هل تسمعني؟ إنك لي كذلك. ولن تأخذك هذه المرأة مني.

وأخذت تقترب منه ولكنه لم يلبث أن استدار ثانية وغادر الحجرة في هدوء، ووقفت عنبر في مكانها جامدة كالتمثال.. كانت صدمة عنيفة لم تكن تحلم بمثلها.. بروس يتزوج من غيرها ثم يهجرها إلى الأبد. ورفعت أحد ذراعيها ناحية الباب وكتمت بيدها الأخرى تلك الصيحة التي كادت تنبعث من حلقها وسمع على الفور صرخة خافتة مكتومة تقول: "بروس؟" ولكنه كان قد رحل ولم يعد في استطاعتها أن تسمعه توسلاتها وصرخاتها، وراحت تحدق في الفراش الذي أصبح موحشًا بعد رحيل حبيبها، وأدركها التعب فتهالكت عليه وهي تبكي وتئن وأخذت تهذي في جنون "لقد فقدته إلى الأبد.. لقد رحل عني حبيبي ولن يعود. لقد فقدتك يا بروس إلى الأبد"

وفي الليلة التالية زارها زوجها جيرالد؛ فقالت له في برود:

– ما الذي جاء بك هذه الليلة يا سيدي؟

فاحمر وجهه خجلاً وقال في خوف:

– أليس من حقي أن أزور زوجتي يا سيدتي؟ ألست زوجك يا عنبر؟

وأدركت عنبر في الحال أن أمه قد أعطته هذا الدرس بعد خروجها من عندها في الليلة الماضية، وقالت:

– بالطبع هذا من حقك يا جيرالد فأنت زوجي..

وخطرت لها فكرة، فأمسكت ببطنها وأخذت تتلوى وتئن كما لو كانت تعاني آلامًا شديدة فارتبك الشاب ولم يدر ما يفعله. ولكنها أخبرته أنها حامل فصرخ في اندهاش:

– يا إلهي؟ أبهذه السرعة؟ أكاد لا أصدق ذلك..

ثم ودعها متمنيًا لها نومًا هادئًا وغادر حجراتها وأغلق الباب خلفه..

وما كاد يتوارى عن ناظريها حتى رنت في أرجاء الحجرة ضحكة ساخرة .. وراحت عنبر تستعد لزيارة بروس إذ كانت تعلم أنه لا بد من أن يأتي لتوديعها.

وجلست عنبر أمام المرآة وأخذت تحل جدائل شعرها وتخلع ملابسها، ولم يمض وقت طويل حتى سمعت طرقة خفيفة على باب حجرتها، وكان بروس..كانت عينان الزرقاوان ترقبانها في المرآة فأحست هي برعشة تسري في أعضائها، ولم يلبث أن اقترب منها وراح يداعب جدائل شعرها

في حنو.. ثم طبع على رقبتها قبلة طويلة اختلج لها جسدها فتنهدت من أعماقها تنهدًا حارًا وأسبلت عينيها، وراحت تسبح في عالم آخر.. أخذها بين ذراعيه وضمها في عنف إلى صدره فتمتمت:

– بروس. لشد ما أحبك يا بروس..

وألصق شفتيه ثانية بشفتيها في نهم وأطبق على جسدها المرتعش بذراعيه، وفجأة سمع صرير الباب فأفاق، وأرسل بصره عبر الحجرة، وذهلت هي لانشغاله عنها واستدارت، فإذا بها تقف وجهًا لوجه أمام زوجها جيرالد. واتسعت حدقتاها واحمرتا غضبًا وصاحت به:

– ماذا تفعل هنا؟ أتتجسس علي؟ يا لك من مخلوق حقير.

وفي الحال أخذت صندوقًا فضيًا كان على مقربة منها وألقت به في وجهه بكل ما استطاعت من قوة .. ولكنها أخطأت الهدف .. وقفز جيرالد من مكانه مذعورًا وقال بارتباك: إني آسف يا سيدتي .. لم أكن أعرف .. لم أكن أظن أن ..

– يا لك من كذاب جبان. سوف أجعلك تندم على ذلك ..

وكان بروس في هذه الأثناء يقف صامتًا يلمع في عينيه بريق الدهشة والحيرة فلم يكن يدري ما يجب أن يفعله لقد أحس فجأة بقسوة هذه المرأة واستهتارها، ونظر إلى جيرالد، فتحركت فيه عاطفة الرثاء، وأحس بتأنيب ضميره، فصاح في عنبر:

– لا شك أنه لم يكن يقصد التجسس عليك كما تقولين.. دعيه يشرح لك خطأه..

ونظر جيرالد إليه شاكرًا وقال متلعثمًا:

– لقد كانت أمي في الصالة وعندما رأتني.. عندما رأتني قالت لي أنه يجب علي أن أزورك ثانية.

وتقدم إليه بروس وانحنى له في أدب وقال:

– إنني أعتذر إليك يا سيدي، وأرجو أن تعلم أنه لم يخطر ببالي قط أن أعبث بشرفك أو أن أسيء إلى زوجتك.

واستعاد جيرالد رباطة جأشه وانحنى بدوره إلى بروس وقال:

– لقد قبلت اعتذارك يا سيدي، وثق أنني على يقين تام بأنك رجل شريف ويسرني جدًا أن أتعرف بك في فرصة أخرى.

ثم انحنى ثانية، وأراد الخروج فوجد عنبر في طريقه فانحنى لها كذلك في تأدب وغادر الحجرة وهو يرتعش حنقًا وخوفًا، وأغلقت عنبر الباب خلفه واستدارت وعلى شفتيها ابتسامة ملؤها الازدراء والاحتقار لموقف زوجها.. وكان بروس يبتسم كذلك ولكنها لمحت في عينيه بريقًا لم تره من قبل. كان ينظر إليها نظرة غريبة.. نظرة ملؤها السخرية منها ومن زوجها ومن نفسه.. نظرة ملؤها الرثاء لهذا الزوج المسكين، والاحتقار لذاتها هي،

وذعرت عنبر وسرت في جسدها قشعريرة ولكنها سرعان ما عاد إليها هدوؤها عندما أشار بروس بيده في استخفاف وهز كتفيه واحتواها بين ذراعيه يقول

– مسكين أنت يا جيرالد..

ختام القصة:

يرحل "بروس" إلى زوجته في جاميكا مصطحبًا معه ابنه من عنبر، وتعلم عنبر أن لا سبيل لانتزاع عشيقها بروس من بين يدي زوجته إلا بطريق الوشاية به، فتتصل بها وتخبرها أن بروس الصغير ليس سوى ابنها من زوجها وأنها قد خدعت عندما أخبرها بروس أن أم هذا الطفل قد توفيت من زمن بعيد، وتشتبك معها في نزاع، إذ أن عدم اكتراث زوجة بروس بها قد أثارها.. ويسافر بروس مصطحبًا زوجته إلى جاميكا غير عابئ بعنبر التي جاءت تودعه في الميناء.

صور غرامية من الأدب الفرنسي

سافو

ألفونس دوديه

تقديم للكاتب:

ولد ألفونس دوديه في بلدة نيمس الواقعة جنوب فرنسا سنة ١٨٤٠. وأدبه يمثل هذه المنطقة تمثيلاً تامًا، كما يمثل أدب كل من فلوبير وموباسان المنطقة الشمالية. وكانت سني حداثة هذا الطفل سلسلة من البؤس المتصل إذ لاقى أثناءها الأمرين. كان فقيرًا معدمًا فاشتغل، وهو لم يزل في دور الحداثة، بالتدريس. ويخبرنا هو بأن هذه السنين التي قضاها في التدريس كانت كابوسًا ثقيلاً ظل يطارده حتى منتصف حياته، ونحن نرى أثر تلك الحياة القاسية التي عاشها هذا الطفل المشرد المتعس ظاهرًا بوضوح في بعض مؤلفاته.

ولشدة شغف ألفونس دوديه بالكتابة عن البائسين كان يطلق عليه (ديكنز الفرنسي)، ولم يكن هو بالكاتب الواقعي مثل زولا وبلزاك المغالين في واقعيتهم، بل كان يعد من طائفة الكتاب الذين يعمدون إلى التأثير في نفس القارئ تأثيرًا مباشرًا دون أي اعتبار للتفاصيل. توفي الفونس دوديه في باريس عام ١٨٩٧.

ملخص القصة:

بطل هذه القصة (جان جوسان) شاب في عنفوان شبابه يسعى في باريس للالتحاق بالسلك السياسي. دعت ذات ليلة لحضور حفلة بوهيمية يقيمها النحات ديشليت. وفي هذا الحفل تلتقي نظراته بنظرات (فاني) فيهيم كل منهما بصاحبه ويدعوها إلى حجرته فتلبي هي دعوته مسرورة. وما يصلان إلى الباب الخارجي لمنزله، حتى يحملها على ذراعيه، ويصعد بها الدرج المؤدي إلى غرفته في لذة وشغف. ولكنه لا يرتقي بضع درجات حتى ينهكه هذا العبء وتذهب عنه تلك اللذة التي كان يشعر بها منذ قليل. وهنا يضع الفونس دوديه مغزى القصة بأكملها. ويصل جان ليجراند صداقته (بفاني) حتى تصبح صلتهما معاشرة زوجية.

وعلى مر الأيام يكتشف أن عشيقته فاني ذات ماض حافل بالعاشقين والمعجبين من قبله. فقد اتخذ المثال كودال منها نموذجًا لتمثاله سافو الذي كان يزين منزله في شبابه، واتخذها أيضًا النقاش (فلامنت) خليلة له وأودع السجن من أجلها. وكان لجان عم هو سيزار يعد نقطة سوداء في عائلة جوسان جاء إلى باريس ليحصل على دين لوالد جان. ولكنه ما أن يحصل على المال وهو ثمانية آلاف فرنك حتى يقامر به ويخسره.

ويقع جان في حيرة شديدة، ويستولي عليه اليأس القاتل من جراء ضياع هذا المبلغ. ولكن فاني تسرع إلى ديشيلت وتقترض منه ثمانية آلاف

فرنكا أخرى، ويحدث أن يتلقي بوالد فاني فيجده حوذيًا حقير الشأن، ولكن فاني تواجهه بقولها:

– كلانا سواء، فأنا لي أبي ليجران، ولك أنت عمك سيزار.

ولما عاد جان إلى ضيعة العائلة وجد أن كرومه قد أصيبت بآفة كانت نتيجتها أن ارتبكت أحوال أبيه المالية على عكس كروم عمه سيزار التي لم يصبها أذى. واضطر جان فأرسل إلى (فاني) خطابًا يصارحها فيه بأنه لم يعد قادرًا على المعيشة معها بسبب سوء حالته المادية. ولم تجد هي مناصًا من أن تعمل وصيفة في أحد المنازل. ثم تمكن جان من الحصول على عمل بمرتب ضئيل فعاود حياته معها في ضنك وعناء.

ما أن تحسنت حال العم سيزار حتى نراه يرد أمواله المقترضة، وفي ذات يوم ذهبت فاني إلى جان وأخبرته أن النحات ديشليت قد رفض قبول المبلغ الذي كانت قد اقترضته منه. وأنها قبلت منه هذه المنحة راضية. لقد كانت في حاجة إلى نقود تساعدها في تربية الطفل جوزيف الذي أصرت أمام جان على أن تتبناه هذا الكفل لم يكن في الحقيقة سوى ابنها من النقاش لامنت الذي ما زال سجينًا! وظل جان يجهل ذلك حتى اللحظة الأخيرة.

وتسوء العلاقات بين جان وفاني ويساوره الشك في إخلاصها له، فيحقد عليها أشد الحقد، ويصمم على أن يقطع علاقته بها، ويتزوج إيرين

التي يعرفها عن طريق أسرته، وأن يذهب بها إلى الخارج ويلتحق بالسلك السياسي.

ويشاء القدر أن يصبح العم سيزار رجلاً واسع الثراء بسبب نجاح تجاربه التي أجراها على الكروم. ويرغب في أن يصنع لنفسه تمثالاً فنراه يذهب بصحبة جان إلى النحات الكبير كودال. ويتعرض كودال لذكر اسم صاحبة تمثاله "سافو" فاني، فيخبره سيزار أن جان قد اعتزم هجرها. كان جواب كودال قاسيًا على جان حينما قال: "حسنًا فعل، كم كنت أنتظر ذلك اليوم الذي ننتقم فيه لأنفسنا من هذه الفاجرة". وعلى أثر ذلك يصارح جان عشيقته فاني بأنه لا بد لهما من الفراق.

ولم تعد فاني قادرة على ضبط جماح نفسها الثائرة، فأخذت تكيل له الشتائم والإهانات حتى كلت واختلطت الكلمات عليها وأخذت تكرر قولها: "يا لك من جبان! يا لك من مخادع جبان!"

ولم ينبس جان ببنت شفة بل ظل صامتًا ينصت إليها. لم يحاول أن يوقفها عن التمادي في الشتائم لأنها ذكرته بفاني ابنة لجراند الحوذي. سوف يكون فراقها هينًا عليه الآن. ولكن هل طرأت عليها هذه الفكرة بالذات؟ يبدو ذلك لأنها سكتت فجأة وارتمت عند قدميه وتنهدت تنهدًا حارًا اختلج له جسدها. ثم خرجت من أعماقها صيحة وراحت تقول متوسلة:

"اغفر لي يا حبيبي! سامحني! إنني أحبك وليس لي أحد سواك! جان أنت حياتي فلا تتركني بالله عليك! لا تفعل هذا، ترى ماذا يكون مصيري لو تركتني؟"

وأثرت تلك الكلمات في نفس جان وحركت عاطفته، آه كم كان يخشى حدوث هذا! وأحس بالدموع تملأ عينيه فأحنى رأسه إلى الخلف ليمنع سقوطها، ثم راح يقول مواسيًا:

"لم تفعلين هذا يا فاني؟ أنت تعلمين أنه كان لا بد لي أن أغادر فرنسا في يوم ما.. فلم البكاء؟"

ونهضت فاني واقفة وصرخت في يأس وقالت:

"آه! ولكنك لم تكن لتفارقني! لم تكن لتفارقني عندما كنت أطلب منك.. جان، لا تتركني الآن ودعني أحبك من جديد، هل تعتقد أن هناك امرأة قادرة على أن تهبك من الحب قدر ما وهبتك أنا؟ جان إنك ما زلت صغيرًا وما زال عندك متسع من الوقت لكي تتزوج كيفما شئت، أما أنا فسوف أنتهي عن قريب، عن قريب سوف أنتهي، حينئذ يحق لك أن تفارقني".

وحاول النهوض ولكنها تعلقت به وزحفت على ركبتيها في الطين فخارت قوته واحتضنته بين ذراعيها وهي راكعة أمامه، حاولت أن تذكي نار الحب في قلبه من جديد فنظرت إليه نظرات ملؤها التوسل

والاستعطاف، وأخذت تربت هذا الوجه العابس بيديها الناعمتين برفق، وتمر بأصابعها خلال شعر رأسه. كان يجلس على كرسي من الحطب في هذه الغابة المظلمة وكانت تركع هي أمامه وراحت تذكره بسعادتهما الماضية بصوت خافت حنون، تذكره بتلك السعادة التي كانت تغمرها مساء كل أحد، ثم تعده بأضعاف أضعافها إن هو لم يفارقها. وانهمرت الدموع من عينيها وانتفض جسدها لما اعتراها من يأس وصرخت وكأنها في كابوس ثقيل قائلة: "لن يحدث مثل هذا! لا.. لن نفترق! لا تتركني! قل لي أنك لن تتركني!"

وتعالى أنينها وزفرت من أعماقها زفرات المستغيث، ولم يكن الجلاد أكثر شجاعة من ضحيته، فقد نالت منه هذه الدموع الشقية وتلك التوسلات الحارة، لم يخش من غضبها وسخطها قدر ما خشي توسلاتها ونحيبها. أمام هذه الدموع المنهمرة، وأمام هذا العويل الذي رددت صداه أنحاء الغابة كأنما ينشد الغوث فلا يكاد يجد سوى قاع المستنقع الملوث الذي تسطع عليه أشعة الشمس الحمراء. كان يعلم انه سيمر بتجربة قاسية، ولكنه لم يكن لينتظر مثل هذا العذاب. لقد أوشك أن يرفعها بكلتا يديه وأن يضمها إلى صدره ويقول: "كفاك تعذيبًا لي! لن أفارقك إلى الأبد!"

واختفى قرص الشمس، ولم يعد يظهر منها شيء سوى خط أحمر رفيع، بدأ يضمحل شيئًا فشيئًا في الأفق البعيد، وأظلمت مياه المستنقع فبدت رهيبة سوداء وكأنها ترسل بخارها الذي ينضح بالأمراض عبر البراري

والغابات وخلف السفوح والتلال، وفي هذا الظلام لم يكن جان ليرى شيئًا سوى هذا الوجه الشاحب، ينظر إليه في توسل واستعطاف، وتلك العينين الزائغتين اليائستين، وذلك الفم الذي تتصاعد من أعماقه التنهدات. وظلا كذلك حتى خيم الظلام الحالك على الغابة الموحشة، فكفت فاني عن إرسال هذه التنهدات المكتومة وانهمرت الدموع من عينيها كأنها سيل جارف أعقب العاصفة، وسمع بين حين وآخر أنة عميقة خافتة كانت تخرج من أعماقها شاكية مسترحمة. بعد قليل ساد سكون رهيب، وأسلمت الضحية نفسها بعد أن أعياها النضال في سبيل حياتها، وهبت ريح شمالية باردة حملت إليهما صوت دقات ساعة بعيدة. "هيا بنا الآن".

ورمقها برفق، وسارت وراءه دون أن تجرؤ على الإمساك بيده. كان يخيل للناظر إليهما وقد سارا بخطواتهما المضطربة وسكونهما المطبق، وإطراقهما إلى الأرض أنهما ليسا سوى زوج من الفلاحين العائدين إلى دارهما بعد أن قضيا يومًا كاملاً في كد مستمر. وعند المنحنى توقف جان لكي ينصرف فقالت له فاني متوسلة: "هلا بقيت لتناول طعام العشاء. لقد فاتك القطار ويمكنك أن ترحل في قطار التاسعة".

وراح جان يفكر: "ما الذي يخشاه الآن؟ هذا المنظر قد انتهى ولن يعاد تمثيله ثانية فمثله لا يحدث مرتين، إن أقل ما يجب عليه عمله هو أن يعزي نفسها الحزينة بأن يجيب لها مطلبها".

ودخلا غرفة الطعام الدافئة واسترعى وقع أقدامهما انتباه الخادمة التي ما أن وقع نظرها على فاني حتى صرخت مذعورة: "يا إلهي! ماذا أرى!؟"

كانت فاني شاحبة الوجه مشعثة الشعر، وكانت عينها حمراء منتفخة وكان يخيل للناظر إليها أنها عاهرة أعيتها مطاردة البوليس فبدت عليها علامات الخوف والذعر. كانت تتنفس بصعوبة ظاهرة وكانت عيناها الداميتان تلمعان في ضوء المصباح. وأثار فيها جو هذه الحجرة الدافئة ذكريات الماضي الجميل، فلم تستطع أن تقاوم هذا السيل من الدموع المحتبسة فانفجرت تبكي، وتخلل نحيبها صوت خافت يكرر تلك الكلمات البائسة: "سوف يهجرني حبيبي، إنه ذاهب عني.. سيهجرني إلى أحضان زوجة له. إنه ذاهب عني، حبيبي".

وتبادل جميع من في الحجرة نظرات التعجب والرثاء ثم قال الرجل السمين: "مهما يكن من أمر، فنحن الآن نريد أن نتعشى". قالها في حرارة ظاهرة وانقض على الطعام يلتهمه، واختلطت أصوات الملاعق بصوت خرير المياه في غرفة النوم القريبة حيث كانت فاني تغسل وجهها. وبعد قليل رجعت فاني إلى غرفة الطعام فنظر إليه الجميع في رثاء متوقعين أن تبكي من جديد. ولشد ما كانت دهشتهم عندما رأوها وقد جلست إلى المائدة وبدأت تلتهم الطعام في نهم وكأنها لم تذق شيئًا منذ أيام كانت تريد أن تنتقم لنفسها، كانت تريد أن تسد هذا الفراغ الذي خلقه في أعماق نفسها هذا الحزن الشديد، تريد أن تسد هذه الهوة التي حفرت في أعماقها

من أثر ذلك الصراخ بأي شيء تصل إليه يداها؛ لذا فقد هجمت على الأكل في وحشية كأنما تنتقم لنفسها.

وكان جان يجلس في صمت عميق وقد بدا منهوكًا خائر القوى. لقد أثملته هذه الحجرة الدافئة بجوها المفعم بالذكريات، ولكنه نهض فجأة وقال: "أنصتوا! إنها التاسعة! وداعًا! سوف أكتب إليك". وهرول خارجًا صوب الباب وأخذ يتحسس موضع المزلاج ثم فتحه ونفذ إلى الشارع، وأحس فجأة بذراعين تلتفان حوله وصوت متوسل يقول: "قبلني! جان، لا أريد منك شيئًا سوى أن تقبلني". وراح في شبه غيبوبة ثقيلة.. لقد نفذت رائحة هذه المرأة التي يحتضنها بين يديه إلى أعماقه فأثملته.. لقد أحست نفسه فجأة بذلك الدفء الذي نفذ إلى صميم كيانه.. وكاد يفقد وعيه إذ اختلطت قبلته بدموعها الساخنة. وأحست هي بضعفه المفاجئ، فتمتمت قائلة: "لحظة أخرى.. لحظة أخرى فقط"، وقطع السكون رنين جرس يدق ثم صوت قطار يتحرك!

ختام القصة:

واستقل جان القطار قاصدًا باريس، ولم ينقطع عن التفكير في فاني في بادئ الأمر، غير أنه لم يلبث بعد قليل أن حول فكره إلى إيرين زوجته المستقبلة، وإلى حياته الجديدة التي سيحياها معها.

ويعترض سير القصة حادث لم يكن في الحسبان إذ يطلق سراح فلامنت ويبدأ حياته مع عشيقته التي سجن من أجلها وابنه جوزيف.

وفي النهاية يتحقق جان أنه لن يستطيع أن يتناسى فاني! فيطلق زوجته إيرين. ويحرمه أبوه من الميراث. ولكنه لا يكترث، بل يرسل إلى فاني أنه سوف ينتظرها في ميناء مرسيليا لكي ترحل معه إلى أمريكا الجنوبية، حيث يعتزم أن يبدأ حياته من جديد. وبينما هو ينتظرها في مرسيليا إذ بخطاب منها ينبئه بأنها تعيش الآن في كنف عشيقها فلامنت ومعها ابنهما جوزيف:

"إنك الآن حر طليق فلن تراني ثانية!" الوداع! قبلة أخيرة.

نانا

إميل زولا

تقديم للكاتب:

ولد إميل زولا سنة ١٨٤٠ من أبوين فقيرين، وقد اشتغل بالصحافة ثم بالتأليف وهو لم يزل في ريعان شبابه، غير أنه لم يتح له نشر كتابه الأول "الحانة" إلا بعد أن بلغ السادسة والثلاثين. وكان لهذه القصة الرائعة الفضل الأول في شهرته وتطلع الجمهور إليه. ثم لم يلبث أن كتب قصته العالمية "نانا" عقب ظهور مؤلفه الأول بثلاث سنين. وتعتبر "نانا" صورة من بطلة قصته الأولى، فكلتاهما تمثل تاريخ حياة غانية غير أن قصة "الحانة" تمتاز بقوتها ومتانة أسلوبها.

وكان إميل زولا من أنصار المذهب الواقعي. يرسم شخصيات قصصه من الحياة المحيطة به دون تستر أو مواربة. هو رجل إنساني يريد أن يصلح من هذا المجتمع الذي بدأ ينحل ويتصدع. كان يكتب عن هذا الانحلال الخلقي الذي بلغ أشده فيضفي على شخصياته شيئًا كثيرًا من الضعة والحقارة فتقرأ قصصه فيخيل إليك أنها لرجل ساقط دفعه سوء ظنه بالناس إلى تصويرهم بهذه الصورة البشعة.. وما كان يقصد من هذا سوى رفع مستوى الأخلاق والنهوض بهذا المجتمع المتداعي.

وكان إميل زولا دائمًا يناصر جانب الضعيف فتراه يكتب خطابه المشهور "إنني اتهم!"، وقد كان تعرضه للحكام وتربصهم به سببًا في هربه المفاجئ من فرنسا، واستوطن إنجلترا وأخذ يستأنف كتابه وهجماته العنيفة على كل ما هو خارج على العرف والأخلاق، وكان كل أمله أن يرى صدى هذه الهجمات، ولقد تحققت أمنيته فهز العالم أجمع بقوة قلمه وصدق كتابته وتفانيه في عمله. توفي سنة ١٩٠٣.

ملخص القصة:

لم يكن سحر نانا وعظمتها يكمنان في تمثيلها أو في عذوبة صوتها لأنها لم تكن تعرف شيئًا عن هذا أو ذاك. كانت معبودة الجماهير لأشياء أخرى غامضة جعلت من يشاهدون تمثيليتها الأولى "فينوس" يقولون عنها أنها "صاعقة" وسرعان ما رددت الجماهير الغفيرة هذا النداء.. كانت لا تزال في سن الثامنة عشر عندما ظهرت على المسرح لأول مرة.. وفي الفصل الأخير عندما تجردت نانا تقريبًا من ثيابها كف الناس عن التصفيق والهتاف وأخذوا يحملقون في ذهول. لقد أثارت هذه الفتاة نار الرغبة الكامنة في نفوس الرجال. وابتسمت نانا فوقع ضحية هذه الابتسامة آلاف وآلاف، وركعوا عند قدميها ساجدين. وفي الصباح جاء جمهور المعجبين لزيارة نانا في بيتها، ولقد بلغ من كثرة عددهم أن تحيرت "زويا" خادمتها لعدم قدرتها على إيجاد أمكنة تكفي لهذا العدد الكبير من الواهين.

كانت حالة نانا المالية مضطربة وكان لزامًا عليها أن توفر المال الكافي لابنها الصغير الذي أرسلته إلى مدرسة داخلية. لذا فقد عمت إلى إيقاع أغنياء القوم ووجهائهم في حبها. وكان أول من جاء لزيارتها شابًا صغيرًا يدعى "جورج" بلغ هيامه بها حدًا كبيرًا. وتخلصت نانا منه ببساطة لأن شخصيتين من أبرز شخصيات المجتمع كانا في انتظارها: الماركيز شوارد وابن زوجته الكونت (موفات). وتمن عليهم نانا ببعض محاسنها فقد كانت ترى فيهما طعمًا شهيًا لتحقيق مطالبها ورغائبها.

فأرسلت إلى الكونت موفات دعوة للعشاء جمعت فيها كل معجبيها، وبلغ من إعجاب المليونير ستين ربها أن اشترى لها قصرًا جميلاً في الريف.. وذهبت نانا والفرح يملأ قلبها لترى هذا القصر البديع.. وبينما هي تجوب أرجاء الحديقة غير عابئة بالمطر المنهمر، إذ بها ترى أحد جيرانها يجيء لزيارتها.

المشهد الغرامي

– انظري يا زويا! إن شجرة التوت قد أثمرت! أعطيني طبقًا من عندك وتعالي نقطف معًا.

ولم تحفل نانا بالمطر الذي كان ينهمر بشدة، فوضعت مظلتها جانبًا وراحت تجمع الثمار في شغف من بين الأوراق، وبينما هي منهمكة في عملها إذ بها ترى شبحًا يقترب منها بين الأشجار. وصرخت في ذعر: "يا إلهي هذا حيوان بري؟" ولكنها لم تلبث أن تحققت من شخصية القادم

وصاحت قائلة: "إنه جورج.. يا إلهي.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟" فأجاب قائلاً: "جئت من تلقاء نفسي".

وعجبت من أمره ثم قالت: "لا شك أنك علمت بقدومي عن طريق البستاني.. ما هذا يا جورج؟ إن ثيابك مبللة". فأجاب: "لقد سقطت في حفرة مملوءة بالماء بينما كنت في طريقي إلى هنا".

وقادته ممسكة بيده نحو القصر وهي ترتجف خوفًا عليه، كانت تشعر بالعطف نحوه فلم تكد تراه وهو على هذه الحال حتى نسيت كل ما يتعلق بأمر التوت.. ولم تعد ترى أمامها سوى جورج المسكين الذي يرتعد من البرد. وتمتم قائلاً: "كنت أختبئ وراء الأشجار لأنني كنت خائفًا منك، فما زلت أذكر تقريعك إياي يوم زرتك في باريس وكنت لا تتوقعين زيارتي".

ولم تجب نانا بل قبلت جبهته وراحت تضحك في طرب. كانت تعامله كطفل صغير، تارة تضحك منه ومن كلامه وتارة تشفق عليه وترثى لحاله. وأمرت نانا خادمتها بأن تشعل النار في مدفأة مخدعها، ولم تعجب زويا للأمر بل اعتبرته أمرًا عاديًا.. فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي تستقبل فيها نانا رجالاً في حجرة نومها ولكن البستاني دهش عندما أحضر الحطب لمنظر هذا الرجل بملابسه التي تقطر ماء.. إنه واثق من أنه لم يفتح له الباب العمومي للقصر فكيف دخل؟ لا شك أنه تسلل من سور الحديقة دون أن يلحظه أحد.

كانت الحجرة مضاءة بمصباح صغير، وكانت نيران المدفأة تزمجر في غضب شديد فتبعث الدفء في أرجاء الحجرة. وراح جورج يرتعد من البرد فقالت نانا:

– يا إلهي سيصاب هذا المسكين بالبرد. يجب أن يستبدل ملابسه في الحال.

وفكرت نانا في أن تدعو البستاني ليأتي لها ببعض ثيابه، ولكنها عدلت.. خطرت لها فكرة أخرى فاستدعت زويا في الحال وأمرتها بأن تحضر بعض ثيابها وأن تعطيها لجورج لكي يرتديها، وصاحت في حماس:

– هذا رائع! هيا اذهب واستبدل ثيابك فها هي ملابسي قد جهزت لك.. إنك لست غاضبًا مني يا جورج؟ سوف ترتدي ثيابك ثانية حالما تجف.. ثم تعود مسرعًا إلى أمك حتى لا تستهدف لتأنيبها.. هيا أسرع! إنني ذاهبة لأستبدل ثيابي كذلك.

وبعد عشر دقائق عادت لترى جورج مرتديًا ثيابها فلم تتمالك أن صاحت:

– ما هذا يا حبيبي جورج! إنك رائع في ملابس فتاة!

وكان جورج في قميص نانا الحريري وبشعره الذهبي الناعم أشبه بفتاة جميلة تتأهب للنوم. وقالت نانا وهي تضع ساعديها حول خصره

– انظري يا زويا. يخيل إلي أن الثوب قد صنع له خصيصًا. إنك لست أضخم مني يا عزيزي جورج! ولكنك نحيف من الخلف، ويجب أن تملأ هذا الفراغ لتصير مثلي. أليس كذلك يا حبيبي؟

فقال بصوت خافت:

– لا شك أنني أفتقر إلى هذا الجزء المهم.

وضحك الجميع وراحت نانا تصلح الثوب فوق صدر جورج ثم تتفحصه من الخلف، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة فرحة. وأخذت تسأله هل شعر بالدفء وهل هو مسرور بهذا الثوب النسائي. لا شك أنه كان يجد في هذه الثياب الحريرية. ثياب نانا راحة عظمى. كان ملمسها الناعم يوحي إليه بسحر جسدها.. وتمنى أن يظل مرتديًا ثياب نانا إلى الأبد.

وفي هذه الأثناء كانت زويا قد أخذت ملابس جورج المبللة وذهبت بها إلى المطبخ لتجف، وارتمى جورج على مقعد مريح وهو يقول:

– إنني لم أتناول شيئًا من الطعام من مدة طويلة وأكاد أموت جوعًا!

وراحت نانا تفكر: "يا له من أبله.. أيهرب من أمه جائعًا ويجتاز هذه المسافة الطويلة.. ويسقط في حفرة مملوءة بالماء؟ كل هذا رغبة في رؤيتي.. حقًا إنه صبي مسكين"

كانت نانا جائعة كذلك فأمرت بإحضار كل ما لديها من الطعام، ووضعت زويا المائدة بجوار المدفأة وأخذا يلتهمان الطعام في نهم. وقالت نانا تخاطب جورج مبتسمة وهي تدفع المائدة:

– أتعلمين يا حسنائي أنني لم أتناول طعامًا بمثل هذه الشهية منذ عشر سنين؟

كان الوقت يمر بسرعة، وأرادت نانا أن ترسل هذا الصبي إلى منزله حتى لا يتعرض لتقريع أمه.. ولكنه كان يريد البقاء بجانبها بحجة أن ملابسه لم تجف بعد، وأكدت زويا ذلك لأنها كانت متعبة تريد أن تستمتع بشيء من النعاس. وكانت نيران المدفأة ترسل حرارتها في أركان الحجرة. وشعر كلاهما بالدفء يسري في دمائه.. ولم تحتمل نانا هذه الحرارة الشديدة فنهضت إلى الشباك وفتحته.. كانت ليلة سارحة وكان الطقس قد تغير فانقطعت الأمطار وانقشعت السحب وتوسط القمر كبد السماء وأرسل أشعته الفضية فأضاء المكان، ولم تتمالك نانا أن صرخت: "يا له من منظر ساحر .. تعال يا جورج وانظر إلى هذه السماء الصافية!"

ولم يكن الشباك يتسع لكليهما، فوضع جورج ساعده حول خصرها وأسند رأسه على كتفها، كان الهدوء يسيطر على هذا الوادي المنبسط أمامهما. وكانت الأشجار البعيدة تبدو في الأفق البعيد كأشباح ساكنة.. وكان لهذا المنظر الرائع أثره القوي في نفس نانا، فأحست بأنها قد عادت طفلة رقيقة الشعور طيبة القلب.. عادت إليها ذكرى طفولتها يوم كانت

تحلم بمثل هذه الليلة في صباها: هذا الهدوء المسيطر على الكون وهذا القصر بحديقته الفسيحة وتلك الرائحة الجميلة التي تملأ أرجاء المكان.. كل هذه الأشياء طالما حلمت بها وهي لم تزل طفلة صغيرة، إنها تراها اليوم قد تحققت.. فيا له من حلم ويا لها من حياة! وخيل إليها أنها قد تركت باريس منذ عشرين سنة.. لقد ملأت عليها تلك الذكريات فكرها ولم تعد تحس بشيء سواها.. وكان جورج في هذا الوقت يقبلها في جيدها بحرارة واشتياق مما زاد في هياج حواسها ومشاعرها. وكرر الصبي قبلاته فلم تعد تحتمل أكثر من هذا فأبعدته عنها بيد مرتجفة.. كانت ترى فيه طفلاً صغيرًا لا يعرف شيئًا عن الحب وليس جديرًا بأن تعيره شيئًا من انتباهها. وفي هذه اللحظة سمعا نشيد بلبل ينبعث من تحت النافذة فقال جورج "انتظري قليلاً .. سأطفئ المصباح لأن النور يخيف هذا البلبل الجميل." وأطفأ المصباح، ثم عاد إليها وأحاط خصرها بساعديه وهو يقول "سوف نضيء المصباح ثانيًا بعد قليل" وراحت نانا تصغي إلى البلبل في لذة وشوق وكان جورج يضمها إليه في حرارة شديدة، وأسلمت نانا نفسها لتلك الذكريات التي داهمتها في تلك اللحظة.. كانت لا تصدق ما قرأته يومًا ما في إحدى القصص عن منظر مثل هذا.. عاشق وعشيقته يضم كل منهما الآخر في حرارة وشوق وقد ساد السكون حولهما وأضاء القمر وجهيهما.. وغرد بلبل أغنية الحب على مسمعهما.. يا لقسوة القدر.. لقد فات ذلك الوقت الذي كانت تضحي فيه بحياتها.. لترى فيه مثل هذا القمر، وتسمع شدو مثل هذا البلبل وتحس بقبلات شاب يهيم بحبها. لقد فات مثل ذلك الوقت ولن يعود لأنها وإن كانت قد ولدت طاهرة عفيفة إلا أن الزمن قسا

عليها فباعت عفافها وطهرها! ودفعت جورج عنها برفق وهي تقول "لا! لن يكون هذا.. إنك ما زلت صبيًا طاهرًا، وسأظل أحبك كما تحب الأم ولدها"

وبدأت علامات الخجل تظهر على وجهها لأول مرة في حياتها.. لم يكن هناك داع لهذا الخجل فما من مخلوق يراهما. فالظلام مخيم على المكان والسكون يشمل أرجاء الكون، ولكنها خجلت! وأحست بقوتها تخور شيئًا فشيئًا فاستسلمت لهذا الشاب الذي يعبدها في حرارة وصدق، وشعرت بملمس ردائه الحريري فخيل إليها أنها أمام فتاة تلاطفها فضحكت.. وتمتمت وهي مستسلمة له "لا .. لن يكون هذا .. لن يكون هذا!" وارتمت في أحضانه، وقد أسلمت نفسها بين يدي هذا الطفل الوديع يفعل بها ما يشاء، وساد السكون والظلام.

ختام القصة:

وتظل نانا على هذه الحال.. تسلب كل من يعجب بها من الرجال وتنزل به إلى الحضيض.. أما جورج فقد طعن نفسه عندما اكتشف أن أخاه ينافسه في حبها، ثم يهجرها الكونت موفات عندما يرى زوج أمه معها في الفراش، ولكنه يظل يتتبع أخبارها ويبكي عندما يسمع بموتها بالجدري..

وهكذا شاء القدر أن يشوه هذا الوجه الذي سجد أمامه كل من رأوه من الرجال وتموت نانا وحيدة، لأن أحدًا لم يجرؤ على الاقتراب من فراشها. تموت بعد أن يشوه جسدها الذي طالما هتف الناس له وصفقوا إعجابًا به.. تموت فينوس وحيدة منبوذة!

الرجل الضاحك

فيكتور هيجو

تقديم للكاتب:

ولد فيكتور هيجو في فرنسا عام ١٨٠٢ ولكنه أمضى معظم أيام صباه في إسبانيا ولم يرحل عنها إلا بعد أن خرجت من قبضة نابليون. كان أبوه قائدًا كبيرًا في الجيش الفرنسي، وقد تربى فيكتور هيجو على المبادئ الملكية فلما بلغ مرحلة الرجولة كان من حلفاء نابليون. بدأ يكتب وهو لم يزل صغير السن حتى أن شاتوبريان قال عنه وهو في سن السابعة عشر أنه "طفل عظيم". قاد فيكتور هيجو الحركة الرومانتيكية في الأدب، واشتهر بمسرحياته وهو لم يزل في سن مبكرة. ويمكننا أن نقف على مقدرة الكاتب الفائقة في إثارة الشفقة في النفوس إذا ما اطلعنا على أولى مؤلفاته "بج جارجلل" التي كتبها في سن السابعة عشرة. في هذه القصة الخالدة يصور لنا الكاتب ثورة لم يسبق لها مثيل. ثورة على الظلم والعبودية. ثورة العبيد على سادتهم في دومنيكا.

ولقد وقفت الرقابة السياسية حجر عثرة في مؤلفاته، وكان قد تعرض في أحد كتبه للملك شارل العاشر فلم يبح نشر هذا الكتاب بعد سقوط الملك. كذا في إحدى مسرحياته نراه يتعرض للملك لويس فيليب ولقد

كان من دواعي سروره أن يعيش بعد كتابتها بخمسين سنة ليراها تبعث من جديد بعد نصف قرن.

ولقد منح فيكتور هيجو لقب كونت وأصبح عضوًا في "مجلس الأشراف"، وكان يعمل على أن يصدر قانونا يسمح لأتباع نابليون المنفيين بالرجوع إلى فرنسا. ولكنه أصبح من ألد أعداء لويس نابليون حينما صار هذا الأخير رئيسًا للجمهورية الفرنسية. واضطر أن يهجر فرنسا ويحارب لويس بقلمه وكتابته. ولقد هزمه فعلاً سنة ١٨٧٠ ونفي لويس من فرنسا. عندئذ رجع هيجو إلى باريس ليقف مدافعًا عنها في وجه الألمان. وفي خلال العشرين سنة التي قضاها في المنفى كتب فيكتور هيجو أجمل ما عرفه النثر القصصي في فرنسا. توفى فيكتور هيجو سنة ١٨٨٥.

ملخص القصة

ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية تحت عنوان (بأمر الملك). والسبب في هذا يرجع إلى المؤلف نفسه، فهو الذي قال أن هذه القصة إنما كتبت عن الطبقة الأرستقراطية، ويغلب على هذا الكتاب الصبغة التاريخية التي تتميز بها قصص ألف ليلة وليلة.

ولقد أطلق فيكتور هيجو لمخيلته العنان عند كتابة هذه القصة فأخرج لنا تحفة أدبية بارعة. وتدور حوادث هذه القصة عقب الثورة التي اندلعت نيرانها في إنجلترا عام ١٦٩٠ في ذلك الوقت كان الملك وليمز الثالث يتربع على عرش إنجلترا وكان يريد أن ينتقم من أتباع سلفه الملك

جيمز الثاني. وخاف جماعة منهم أن يقبض عليهم الملك فأقلعوا على سفينة شراعية من ميناء بورتلند. وكان معهم صبي اسمه جوينبلان في العاشرة من عمره. وكان هذا الصبي هو شغلهم الشاغل. أرادوا أن يتخلصوا منه فتركوه على الشاطئ جائعًا ليموت في البرد القارس، ولم يمض على رحيلهم سوى بضع ساعات حتى هبت عاصفة هوجاء حطمت سفينتهم وأشرفوا على الغرق جميعًا فجاء إليهم القبطان وقال (ليس هناك ما نفعله الآن سوى أن نلقي باعترافنا في اليم).. كانوا قد كتبوا وثيقة خطيرة على الجلد وأمضوها جميعًا ثم وضعوها في زجاجة وأحكموا إغلاقها. ألقوا بهذا الاعتراف الخطير في البحر فطفت على سطح المياه بينما راحت سفينتهم تختفي رويدًا رويدًا وسط الأمواج الثائرة.

أخذ جوينبلان يتخبط في سيره وسط الثلوج وبينما هو على هذه الحال، إذ به يعثر على طفلة صغيرة يكاد البرد يمزق جسدها. حمل الصبي هذه الطفلة المسكينة وراح يشق طريقه على غير هدى. وما هي إلا بضع لحظات حتى قابلهما رجل عجوز يقال له أورسس كان يركب عربة يجرها ذئب. وكانت الطفلة ضريرة فأسماها ضيا وكان جوينبلان مشوه الوجه بطريقة غريبة يبدو معها دائم الضحك.. وتولى ذلك العجوز الطيب القلب رعايتها حتى كبرا.

وفجأة ينتقل بنا الكاتب إلى الطبقة الأرستقراطية بعد مرور خمسة عشر سنة على الثورة أي في عهد آن. هناك الدوقة جوسيانا وهي الابنة الغير شرعية للملك جيمز الثاني. وهناك اللورد دافيد الابن غير الشرعي

لأحد الخارجين على حكومة الملك جيمز الثاني وهو اللورد كلانشرلي الذي ظل منفيًا حتى وفاته. وكان الملك جيمز الثاني قد رد جميع ممتلكات اللورد كلانشرلي إلى لورد دافيد لكي يزوجه من جوسيانا.

وفي عام ١٧٠٥، أي بعد مرور ثلاثة سنين على حكم الملكة آن، كان لورد دافيد يبلغ من العمر أربعة وأربعين سنة بينما كانت جوسيانا لم تزل في سن الثالثة والعشرين. ولم تكن ترغب في هذا الزواج الذي أراده لها الملك الراحل، فلم يكن لورد دافيد بالرجل الذي تحلم به ولم تكن تحبه.

ذهبت جوسيانا بصحبة لورد دافيد إلى أحد المسارح حيث كان أرسس يعرض على الجمهور لأول مرة تمثيلية (الرجل الضاحك) وكان يقوم بها كل من جوينبلان وضيا. وكان جوينبلان قد بلغ من العمر خمسة وعشرين سنة، كانت ضيا العمياء في سن السادسة عشر. لقد شب الاثنان معًا في كنف (الرجل الضاحك) أصبح جوينبلان بوجهه الضاحك حديث الناس أجمعين. وجاءه ذات يوم رسول من جوسيانا يحمل إليه رسالة من الدوقة تقول له فيها: "أنت مخيف وأنا جميلة.. أنت مهرج وأنا دوقة.. أنت وضيع وأنا عظيمة، ولكني أشتهي أن أراك.. إنني أحبك. تعال". لقد أصبح معشوقًا لقبحه وبشاعته. يا لمعجزة القدر!

وفجأة، وبدون سابق إنذار يقبض على جوينبلان ويساق إلى سجن بعيد، وهناك يرى جوينبلان رجلاً مكبلاً بالحديد يضع الجلاد على صدره حجرًا كبيرًا، وكان يقف أمامه رجل آخر يمسك في يده مستندًا أخذ يتلوه

عليه، وما أن رأى ذلك الرجل المكبل جوينبلان حتى تعرف عليه وقال: "نعم هذا هو الصبي الذي باشرت فيه تلك المهمة التي أمرني بها الملك جيمز منذ ١٥ سنة. لقد أمرني الملك أن أشوه وجهه، فأتقنت تشويهه"

وتحقق جوينبلان أنه لم يعد هذا المهرج الذي كان يعمل في فرقة أورسس.. لقد أصبح الآن حسب هذه الوثيقة ابنًا للورد كلانشرلي.. لقد عثر على هذا الاعتراف الذي ألقى به هؤلاء القوم قبل غرقهم في البحر منذ خمسة عشر سنة.. وأمرت الملكة آن أن ترد إليه جميع ممتلكات والده وأن يمنح لقب (لورد). لم يستطع جوينبلان أن يحتمل هذه الصدمة العنيفة فسقط مغشيًا عليه..

ولما أفاق وجد نفسه في قصر عظيم، مرتديًا أثمن الملابس والجواهر.. راح يجوب ردهات هذا القصر لا يكاد يصدق شيئًا مما تقع عليه عيناه. كان القصر خاليًا.. ولكن ما أن يفتح باب إحدى الحجرات حتى يقع نظره على امرأة عارية تنام ملء جفنيها.. ولم تكن هذه المرأة سوى الدوقة جوسيانا.

المشهد الغرامي:

واستيقظت الدوقة على أثر فتح الباب، ورأته فنهضت من فراشها ولفت نفسها بثوب شفاف زادها سحرًا وإغراءً. وراح جوينبلان في غيبوبة عميقة، وحملقت هي فيه مشدوهة، ولكنها سرعان ما استعادت رباطة جأشها وقالت في صوت عذب: "ماذا أرى؟ جوينبلان؟". وفجأة قفزت

إليه في خفة النمرة وتعلقت في عنقه.. ثم دفعته إلى الخلف وأطبقت على كتفيه بكلتا يديها، ووقفت تحملق فيه بشدة.. كانت نظرة صاعقة تلك التي وجهتها إليه.. نظرة مرتابة فاحصة.. وراح جوينبلان يراقب عينيها بذهول. أذهله ذلك الشعاع المزدوج الذي ينبثق من عينيها المصوبتين إليه.. خيل إليه أن نورًا من السماء ينبعث من عينيها الزرقاوين وأن نار الجحيم تنبعث من عينيها السوداوين وتبادلا نظرات الإعجاب.. ذهل هو من جمالها الصاعق، وسحرت هي من منظر وجهه المشوه الضاحك. وراح كلاهما في شبه حلم رهيب، وعقدت تلك الرهبة لسانه فعجز عن الكلام. ولكنها خاطبته قائلة: (يا الله ما أذكاك. جئت إلى هنا فجئت في أثري بعد أن علمت أنني أرغمت على الخروج من لندن. يا لك من رجل عظيم)

وحاول جوينبلان أن يتراجع ولكنها أنشبت أظافرها في كتفيه، فعجز عن الحركة، وسيطرت عليه قوة خارقة هي قوة جمالها وفتنتها.. لقد كان هو وحشًا ضاريًا ولكنه وقع بين أنياب من هو أضرى منه.. واستأنفت جوسيانا حديثها قائلة:

"لقد أصدرت الملكة آن أمرها بأن أذهب إلى قصر وندسور دون أن تطلعني على حقيقة الأمر.. ولما وصلت إلى هنا وجدتها في خلوة مع مستشارها الأحمق.. ولكن خبرني كيف توصلت إلى دخول غرفتي؟ لا شك أنك تغلبت على كل ما قام في طريقك من صعاب .. هكذا الرجال؟ لشد ما أعجب بشجاعتك ولكن من الذي أدخلك القصر؟ ربما كان خادمي.. لله دره ما أذكاه! سوف أعطيه مائة جنيها مكافأة له على هذا العمل

الجليل.. ثم خبرني: بأي طريق وصلت إلى غرفتي؟ لا.. لا تخبرني بشيء فلا أريد أن أعرف شيئًا البتة.. فالتوضيح يضيع علي لذتي.. إنني أفضل أن أعرف كل ما هو عجيب وإنك حقًا لعجيب، لذا فأنت عظيم في نظري إن كنت قد هبطت من السماء السابعة أو خرجت من أعماق الجحيم متسللا.. فإن ذلك لهين عليك في سبيل رؤيتي.. ربما نزلت من السماء على متن سحابة، أو خرجت من جوف الأرض كتلة من نار وكبريت.. إن لك أن تدخل مثل الآلهة لأنك من طبيعتهم، لذا فإنني أحبك.."

وأنصت جوينبلان إليها والخوف يعقد لسانه. لقد أصبحت الحقيقة ماثلة أمام عينيه فليس هناك محل للشك، وتلك الرسالة.. إنه لم يكن يحلم بصحة ما بها.. جوينبلان تعشقه الدوقة جوسيانا.. هذا أعجب ما في الوجود.. وأحس فجأة بالكبرياء والعظمة لأول مرة في حياته..

واستطردت الدوقة قائلة:

"ما دمت هنا يا حبيبي فلن أطلب شيئًا آخر، لأنني قلت في نفسي عندما رأيتك لأول مرة هذا هو بعينه.. هذا هو رجل أحلامي، وسوف يكون لي" وكان عليَّ أن أساعد يد القدر التي دفعت بك إلي فكتبت إليك. جوينبلان، أريد أن أعرف. هل تعتقد في القدر؟ إنني لا أعتقد في سواه.. آه ما هذا؟ إنني لم ألحظ أنك في ملابس فاخرة؟ ولم لا؟ إنك رجل غريب.. لا فرق بينك الآن وأنت تلبس ملابس اللوردات وبينك عندما كنت مهرجًا. فما اللوردات سوى أناس مضحكين.. إن لك وجهًا كريمًا..

وعظيم أن أرى هذا الوجه بين يدي.. خبرني متى دخلت؟ هل رأيتني عارية؟ إنني لا شك ساحرة.. أليس كذلك؟ لقد كنت أوشك أن أستحم. أواه.. لو تعرف كيف أحبك. لقد قرأت رسالتي.. هل قرأتها بنفسك؟ وهل تعرف القراءة؟ ربما كنت جاهلاً.. إنني أكثر من الأسئلة فلا تجيب على أحدها. لا أحب سماع صوتك الرقيق.. غير جدير بأمثالك أن يتكلموا.. إن غناءك لشجي ولكنني أمقته. إنه الشيء الوحيد الذي لا أحبه فيك.. كل ما عدا ذلك فهو فظيع. لذا فهو عظيم عندي. لو كنت في الهند لاتخذوك آلهًا وعبدوك. هل ولدت وعلى وجهك تلك الابتسامة المخيفة؟ لا.. لا شك أنها وشم تعذيبك. إنني أتمنى أن تكون قد ارتكبت جريمة ما شوه وجهك على أثرها. تعال بين أحضاني تعال بين ذراعي فإنني أحبك".

وارتمت على الأريكة الفاخرة وأخذته بين ذراعيها.. لقد كانت كلماتها تنصب في أذني جوينبلان كالعاصفة الهوجاء ولم يكن يفقه شيئًا مما تقول. كانت عيناها تلمعان تيهًا وإعجابًا. وكان صوتها عذبًا تتخلله نغمة أقرب إلى الجنون. وكان في كلماتها عزف موسيقى صاخبة جامحة.

وحملقت فيه من جديد ثم قالت:

"إنني أشعر بالانحطاط لقربي منك ولكن يا لسعادتي! كم أحتقر هذه العظمة التي تحيط بي. لقد سئمتها وبدأت أجد سعادتي في حياة منحطة كتلك التي تحياها.. أريد أن أنزل بالعائلة المالكة إلى أسفل سافلين. أريد أن أتحرر من عبودية الملكية! لم أشعر قبل الآن بسعادة الحياة، ولم أستنشق

عبيرها قبل هذه اللحظة.. نعم سأدمر الملكية عن آخرها وسأسحقها تحت قدمي، فإن في ذلك سعادتي الحقيقية.. إن في هذا لذتي وهنائي.. ولكن أصغ إلي.. إنني أحبك!"

وتوقفت عن الكلام ثم ابتسمت ابتسامة مخيفة وقالت:

"إنني أحبك.. لا لأنك مشوه الخلقة فحسب، بل لأنك وضيع. إنني أحب الوحوش المخيفة كما أحب المهرجين.. إن لك جاذبية ليست لغيرك من الرجال! لا أريد أن أتذوق فاكهة من الجنة لأنني لا أجد لذتي سوى في تفاحة من جهنم.. إنني لست كبقية النساء.. إنني حواء جهنم وأنت بعينك الشيطان، وإن كنت تجهل ذلك. إنني أريد أن أعيش في كابوس ثقيل.. إنك لعبة في يد الشيطان. إنك صورة من المرح الجهنمي.. إنك كل ما اطلب من هذه الدنيا.. إنك لي جوينبلان.. حتى الآن لم يمسسني رجل كائنًا من كان.. إنني أهب لك نفسي نقية طاهرة، لأنني حتى هذه اللحظة لا أزال عذراء.. إنني أهبك بتولتي.. هل تصدق ذلك؟"

وغمغم جوينبلان: "سيدتي.." ولكنها لم تهمله فقد وضعت يدها على فمه وقالت في حماس:

"أنصت! دعني أتفحصك.. إن لي قلبًا صخريًا إذا تهشم خرجت منه أفعى مخيفة هي أفعى حبي.. وهي قوية جبارة.. هي أقوى من هذا العالم أجمع.. هي التي أتت بك إلى هنا.. هي التي أجبرتك على أن تخترق هذا

العالم بأكمله لكي تأتي بك إلى جواري.. إن هذا بديع حقًا.. فاصمت ولا تتكلم، بل خذني بين ذراعيك".

وصمتت برهة بينما راح هو يرتجف، ولكنها لم تلبث أن استطردت وعلى شفيتها ابتسامة ساحرة: "جوينبلان، إذا أردت أن تنال شيئًا فاشتهيه، إذا أردت أن تخلق شيئًا فاحلم به، لأن حلمك لا يلبث أن يتحقق، مهما كان مستحيلاً. إنك هنا بجواري، وأنا عشيقتك.. عبدتك.. مرني فأطيع.. إن حظك سعيد يا جوينبلان لأن عشيقتك التي خلقت من طين لا ترضى إلا أن تكون وحلاً.. أريد أن أحتقر نفسي فإن هذا سيزيد من كبريائي. إن العظمة الحقيقية هي ما خالطها شيء من الدناءة! أريد أن تحتقرني يا من يحتقرك جميع الناس. ليس هناك أفضل من هذا.. انحطاط ودناءة! يا لسعادتي! دسني تحت قدميك.. فستزداد حبالي.. إنني واثقة من ذلك.. هل تدري لم أعبدك؟ لأنني أحتقرك. إنك أحقر من عرفت. لذا فقد وضعتك وحدك على المذبح وأخذت أعبدك. إنني أحب كل ما ليس على شاكلتي. إذا أردت أن تعرفني على حقيقتي فتصور نجمًا هبط من السماء لكي يسكن في الوحل! هذا أنا"

واستطردت قائلة:

"جوينبلان، لن أحب سواك. ولن أكون لأحد غيرك.. سوف يدهش العالم بأجمعه.. ذلك لأن من فيه جميعًا أغبياء.. إنني أفهم نفسي.. إنني أعظم من الآلهة جوينبلان، إن كلينا يكمل صاحبه لذا فقد خلقنا لكي

نتحاب.. إن لك وجهًا مخيفًا ولي أنا عقلي.. أنت مشوه من الخارج أما أنا فمن الداخل. إن حبي هو حب القدر ولقد جئت إلي فأشعلت جذوة هذه العاطفة الجامحة في نفسي.. لم أكن أشعر بهذا الحب قبل رؤيتك فلما جئت، كشفت طبيعتي على حقيقتها. انظر إلي كأنك تنظر في مرآة يتحقق لك تشابهنا.. إن وجهك صورة من عقلي. آه لم أكن أعرف إنني فظيعة إلى هذا الحد.. جوينبلان، آه لو كنت تعرف كم أحبك!"

وأطلقت ضحكة غريبة، ثم همست في أذنه: "إذا أردت أن ترى امرأة مجنونة فانظر إلي" وراحت تتفرس في وجهه ونار الحب تشع من عينيها. وكان رداؤها الشفاف يثير شتى الإحساسات الغامضة. وأخذت تلك الرغبة العمياء الحيوانية تداعب عقلها. وكان هو ينصت إلى كلماتها المملوءة حماسًا وحرارة وقد تجمد الدم في شرايينه فلم يقو على الكلام.

وتوقفت برهة ثم حدقت بناظريها فيه وهتفت كالمجنونة يا لك من وحش مخيف وفجأة أمسكت يديه وقالت:

"جوينبلان إنني العرش، وأنت قاعدته، ولكن دعنا نتحد معًا.. آه ما أسعدني بهذا السقوط! أريد أن يعلم العالم بأجمعه كيف كان مصيري. إنني شريرة كالآلهة! فما من أحد ينكر أنني بنت الملك جيمز الثاني: إنني الآن أتصرف كملكة. ولقد أحبت أميرات قبلي رجالاً مخيفين، ولكنك لست قبيحًا مثلهم. إنك مشوه. إن القبح شيء حقير، أما التشويه فعظيم. أنت فوق الجميع.. إنني أرى آثار البرق في وجهك المشوه وإن البرق لعظيم..

إن شيئًا إلهيًا قد طرأ على نفسك فأصبحت غريبًا. يخيل إلي أن سيف الفناء قد شوه هذا الوجه بقوة حرارته. إنه سيف الجحيم. إن أردت أن أعرف السمو الإلهي والعظمة الحقيقية فلا مناص من أن احبك.. وإنني أتمتع بهذا النصر وذلك السمو لأنني أعبدك.. إن المجد يقاس بمقدار شذوذه وغرابته. إنني احبك .. وأنت الآن بين ذراعي وهذه حدائقي جنة العاشقين يفوح منها عبير الأزهار.. هل أخبرتك أن الملكة ليست سوى أختي؟ افعل بي ما شئت.. فإنني خلقت لكي يقبل جوبيتر أو الآلهة جميعًا قدمي، ولكي يبصق الشيطان في وجهي.. لم أشعر قبل الآن بتلك السعادة التي تغمرني لقربك مني. آه كم أتمنى أن أقضي هذه الليلة بين أحضانك.. تعزف الموسيقى حولنا ونرقد على فراش واحد في جندول من ذهب، فوق سطح المحيط! اضربني كيفما شئت اركلني بقدمك، قيد يدي، سبني كيفا يحلو لك، فإنني سأحبك إلى الأبد إنني أعبدك يا حبيبي!"

لقد استحالت ملاطفتها زئيرًا كزئير الأسود. لم تكن كسائر نساء جنسها، بل كانت تفوقهن فظاعة وجمالاً. لقد أنشبت مخالبها فيه. ولكنه لم يلبث أن أحس نعومة كفها واستلذ منه. كانت تهجم عليه كالقط المتوحش وكانت تجد في ذلك لذة ومتعة لم تحلم بها طول حياتها. كانت تعبده، ولكن بتكبر! لذا فقد خرجت الكلمات من فمها تتعثر. تارة تسبه وتارة أخرى تمتدحه. تارة تقسو على نفسها، وأخرى تتكبر عليه ولكنها في سبها لم تقصد إهانته بل أرادت أن تعبر له عن مدى قداسته.

كان شعرها يهتز كلبدة الأسد، وجسدها البض ينكشف ويحتجب كالموج وعينها الزرقاء ترسل أشعة ذهبية لتختلط بتلك النار التي تشع من عينيها السوداء.. حقًا إنها ليست كسائر البشر.

واستسلم جوينبلان وراح في حلم ساهم عميق عندما دفنت جوسيانا شفتيها وصرخت قائلة: "إنني أحبك" لم يكن يصدق أنه عشيق الدوقة جوسيانا.. عشيق امرأة ترى ما به من قبح ودمامة.. وكاد يجن عندما أحس بحرارة شفتيها الممتلئتين.

وأمام هذه المرأة الغامضة تناسى جوينبلان كل شيء عداها. تناسى ضيا وتناسى صراخها الضعيف الخافت من أجله.. لقد محت هذه المرأة الغامضة ذكرى ضيا من مخيلته. لقد هجمت عليها في وحشية وأنشبت مخالبها في جسدها ثم تركتها تدمى..

هل أحب جوينبلان هذه المرأة؟ هل يحب القلب تارة في النور وأخرى في الظلام؟ هل هناك طريقان يستطيع الحب أن يسلكهما لكي يصل إلى القلب؟ وهل هناك نوعان من النساء، امرأة طاهرة وأخرى شريرة. لا غنى عن الملائكة، كذلك الشياطين لا بد منهم. هل للروح أجنحة مخيفة كأجنحة الخفاش؟ هل الإثم جزء لا يتجزأ منا؟ وهل نأخذ الشر على أنه دين يجب علينا وفاؤه؟ يا لها من أفكار مخيفة!

ولكن هناك صوتًا صارخًا يقول أن الضعف جريمة لا تغتفر. ولكن ضعف جوينبلان لا يمكن أن نعتبره جريمة لأنه ضعف الجسد. لقد اتحدت

جميع العناصر لتقهر جوينبلان: الحياة والشهوة والخوف وروحه الثملة.. ترى هل قهر فاستسلم؟

ورددت قولها (أحبك!) ثم ارتمت عليه بجسدها في جنون فراح جوينبلان يلهث بشدة.

وفجأة دق جرس صغير في الحائط. فأدارت الدوقة رأسها وقالت: "ماذا تريد مني؟"

الختام:

تبعث الملكة آن إلى جوسيانا برسالة تأمرها فيها بأن تتزوج جوينبلان الذي أصبح الآن لورد كلانشرلي. وتصيح جوسيانا في وجه جوينبلان قائلة في عنف: (لقد أصبحت الآن زوجي. فاخرج من هنا لأن هذا مكان عشيقي)

ثم يدخل جوينبلان مجلس اللوردات، ويدافع عن الفقراء في حماس شديد يجعل اللوردات يمزحون منه لأنهم ما زالوا يذكرون جوينبلان المشعوذ. ويختفي جوينبلان تاركًا أملاكه للورد دافيد. ويذهب باحثًا عن أورسس.

وكان أورسس قد نفي إلى هولندا بعد أن قيل له إن جوينبلان توفي. ويبحر جوينبلان إلى هولندا. وهناك يرى ضيا تهذي فيحاول أن يهون عليها حزنها ويأسها ولكنها تموت بين يديه بعد أن تقول له: (جوينبلان

إنني أموت.. سأرحل بعيدًا عنك فلا تتركني أذهب وحدي.. جوينبلان، تعال معي)

وكانوا وقتئذ فوق سطح السفينة فنهض جوينبلان كالمجنون وتقدم رافعًا عينيه إلى السماء، مادًا ذراعيه إلى فوق، قائلاً والابتسامة بين شفتيه (إنني آت.. ضيا! انظري. إنني آت إليك) وألقى بنفسه في الماء.

أفروديت

بيير لويس

تقديم للكاتب:

ذاع صيته وهو لم يزل في سن السادسة والعشرين عندما نشرت تحفته الخالدة أفروديت لأول مرة سنة ١٨٩٦. ولقد بلغ من إتقانه لها أن وقف جمهور النقاد مكتوفي الأيدي، معقودي اللسان. ولم يستطع أحدهم أن يجد فيها ضعفًا أدبيًا أو تقصيرًا فنيًا يؤاخذ عليه كاتبها. وقارئ هذه القصة لا يسعه إلا أن يصدر حكمه على بيير لويس بأنه كاتب فنان قلما يجود الزمان بمثله على الأدب. وتتجلى موهبة الكاتب ومقدرته الفنية في معالجته لشخصيات الأساطير الإغريقية بتلك السهولة التي تظهر واضحة جلية في "أفروديت". إن أفروديت تمثل ربة الشهوة عند قدماء اليونان.. ويصور لنا الكاتب مدى سيطرة أفروديت على العالم ومدى عجز البشر عن رد سطوتها وسلطانها.

ملخص القصة:

في مدينة الإسكندرية إبان القرن الأول قبل الميلاد عاشت (كرسيس) أشهر غانيات هذه المدينة العظيمة.. ثروة واسعة وجمال ساحر، وشهرة عمت الآفاق. كرسيس التي طالما خفق لمجرد ذكر اسمها قلوب الطبقة الأرستقراطية لم تكن لترضى أن تجرح كبرياؤها من أجل واحد من

هؤلاء المعجبين الولهين.. ولكنها أحبت عشيق الملكة أحبت ذلك النحات الإغريقي ديمتريوس الذي لم يلبث هو الآخر أن وقع صريع حبها وسحرها.. ولم يحلم ديمتريوس في حياته أنه سيجيء يوم يرى فيه نفسه مدفوعًا إلى السرقة مجبرًا على القتل، ولكن حبه لكرسيس أعمى بصيرته فراح يسرق ويقتل وينهب من أجلها.. لقد أقسم بتمثال أفروديت أن يأتي لها بكل ما تطلب مهما كلفه ذلك من إراقة دماء بريئة طاهرة لقد رفض ديمتريوس أول الأمر ولكنه أذعن عندما قالت أفروديت سأرقص لك يا حبيبي عارية.. نعم عارية.. سترى كيف أتقن الرقص وأنا مستلقية على ظهري.. إنك لم تر حتى الآن من كرسيس سوى وجهها ولكنك سوف ترى كرسيس التي تحبها والتي تجهلها حتى الآن.. سوف يتحقق ذلك الحلم الجميل الذي طالما تراءى لك. فلم يسعه سوى أن يذعن.. لم يسعه سوى أن يتناسى كل شيء وأن يذكرها هي.. هي فقط.

المشهد الغرامي:

– يا حبيبي، دعوتني فأقبلت، راعني إذن..

رفعت ساعديها مضمومين، وراحت يديها فوق شعرها فجعلت مرفقيها إلى الأمام وابتسمت

– يا حبيبي أنا لك.. آه، ليس الآن. لقد وعدتك أن أغني فسوف أبدأ بالغناء.

ولم يعد يفكر إلا فيها وتمدد عند قدميها. وكانت تلبس خفين أسودين صغيرين يخرج من كل منهما أربعة عقود من جوهر يلتف حول أصابع قدميها الدقاق، وقد رسم على كل ظفر منها هلال قرمزي. مالت برأسها على كتفها وأخذت تنقر بأطراف يمناها كف يدها اليسرى وتهز فخذيها هزًا ضعيفًا.

أطرحت عنها غلالتها وبقيت واقفة في وشاح ضيق يزم ساقيها وفخذيها...

وقبلت رأسها وأغلقت جفنيها نصف إغلاقة..

وكورت ساعديها ومدت ثغرها.

ولم تحرك قدميها ولم تفرج من ركبتيها المضمومتين، بل أخذت تفتل مئزرها متهادية حول وركيها الساكنين. وقد بدا وجهها ونهداها فوق جراب ساقيها ثلاثة وردات محمرة في باقة من القماش. وكانت ترقص رصينة الحركات، وقد امتزج كتفاها ورأسها وساعداها الجميلان. ويبدو أنها تتعذب في مئزرها الضيق وتزيد من تكشف نصاعة جسدها الذي أوشك ينطلق. وكانت أنفاسها تتهدج في صدرها، ولم يعد فمها يقدر على الانطباق ولم يعد جفناها أيضًا يستطيعان انفتاحًا، وقد شبت في وجنتيها نار ما تنفك تستعر.

وهي أحيانًا تضم أصابعها العشرة أمام وجهها وأحيانًا ترفع ساعديها وتتمطى بانتشاء، فيرتسم بين كتفيها المرتفعين أخدود خاطف سرعان ما يختفي. ثم تدور على عقبيها فيغطي شعرها وجهها اللاهث، وكما ترفع العروس غلالتها أخذت تحل وهي مرتعشة العقرب المنحوت الذي يربط الوشاح بثدييها فينزلق إلى البساط كاشفًا عن سر جمالها كله.

ديمتريوس وكريزيس ..

كانت ضمتها الأولى قبل الحب أتم ما تكون اكتمالاً وتآلفًا، فظلا عليها دون حراك بغية تعرف نشوتها المنوعة. كان أحد ثدييها يتشكل تحت الذراع الذي يضمها ضمًا عنيفًا، وفخذها يلتهب بين ساقين ضيقين، والفخذ الآخر ثقيل عريض. وظلا لا يتحركان، تجمع بينهما – دون أن يندمجا – حمية رغبة متزايدة لا يريدان لها ريا. وتلاقى ثغراهما بادئ بدء، وانتشى كل من صاحبه بأن واجها بتولتهما المعذبة دون أن يبرءا منها.

وإن المرء لا يرى أقرب من وجه حبيبته. فقد بدت عينا كريزيس ضخمة إذ قربت بينهما القبلة غاية القرب. وكان حين تغمضهما يظل على كل جفن ثنيتان متوازيتان فيغطي الوجه من الحاجبين اللامعين إلى منبت الوجنتين، وحين تفتحهما فإن حلقة خضراء في دقة ضبط الحرير تجعل باقة من الألوان تشع في الإنسان الأسود الذي يتسع تحت انحناءة الجفنين اتساعًا مفرطًا. وعلى حين غرة تحقق اللحمة الصغيرة الحمراء الذي ينهمر منها الدمع.

ولن تنتهي هذه القبلة. فقد كان يبدو أن تحت لسان كريزيس ماء حيًا رجراجًا مسحورًا، لا عسلاً ولبنًا كما يقول الإنجيل. وهذا اللسان المتعدد الأشكال الذي يتقعر ويلتف ويتقلص وينبسط وهو أكثر حنانًا من اليد وأقوى تعبيرًا من اللحاظ، هذا اللسان الشبيه بالزهرة تتكور فتنطوي على بذورها أو تدق فتصبح ورقة من أوراق الورد، هذه اللحمة التي تتوتر فترتعش أو تلين فتلعق.

بعثت فيها كريزيس كل حنانها وهواها المشبوب.. ثم تجئ الملاطفات، تطيل مدتها فلا تلبث أن تعود. بينما أطراف أصابعها تجس ما يتيقظ في جنبيها من تقلصات لا تتلاشى تمامًا. قالت لنفسها أنها لا تجد السعادة إلا ساعة تهز الرغبة منها كيانها أو ساعة يسكرها الشبع. والعبور من الرغبة إلى الشبع تفرق منه كما تفرق من العذاب. حين يدعوها إليه حبيبها تقصيه عنها بذراعيها الممدودين وتضيق ركبتاها وتفزع إليه الشفاه، فيقسرها ديمتريوس عليه قسرًا.

وإن من رأى المرأة تحول بين يديه لا يعود يدهشه منظر من مناظر الطبيعة، لا يدهشه نيران الغروب ولا العاصفة في رؤوس الخيل، ولا الصواعق، ولا السراب، ولا الفيضانات الطامية. وقد أصبحت كريزيس كائنًا غريبًا: ارتفقت الوسائد، وأخذت تتثنى وتسقط آنًا بعد آن، متشبثة بطرف الوسادة متعلقة بها كالمحتضر، وهي منبهرة الأنفاس، مائلة برأسها إلى الوراء، ووجنتاها تلمعان، وما يفتأ شعرها الملتوي يتحرك لا يقر له قرار.

وقد نبن من الأذن والكتف خطان عضليان رائعان اتحدا تحت الثدي الأيمن وحملاه كالثمرة.

أخذ ديمتريوس يتأمل في خوف ديني جنون الآلهة في جسد الأنثى، تأمل كيف يتحول موجود بأسره، تأمل هذه الرعشة الإلهية التي يحدثها، يزيدها أو ينقصها كيفما شاء والتي تذهله للمرة الألف.

وتحت ناظره يجد قوى الحياة تجهد وتعظم لتخلق موجودًا جديدًا. وها هما الثديان قد امتلأ لطرفيهما بجلال الأمومة، وبطن المرأة المقدس يتم الحمل.. وهذه الآهات، هذه الآهات النائمة التي تبكي الوضع قبل أن يجيء!

الفهرس